

Анеора Имраго



١٢٩٢

العُصُورُ

العدد ٣ مجلد ١ شمع الحكمة يجذبنا إليك نوفمبر ١٩٢٧

شارلوت كوردای

أوعظة مارا في الثورة الفرنسية

إن شارلوت كوردای ، أشد نساء الثورة الفرنسية اعتماداً على نفسها وأكثرهن
أضراراً وأقواهن ارادة وأبينهن شخصية ، لم تستمد من وحى بشر مثلها ، بل
سمعت وحى ضميرها ، على الضد من كل النساء اللاتي عرض ذكرهن في تاريخ
الثورة الفرنسية . لهذا السبب ضحت شارلوت كوردای بنفسها من غير حاجة
إلى التضحية في سبيل وطنها ، ولو عاشت لأدت لذلك الوطن خدمات جليلة
ذات بال . ولقد قال كثير من السياسيين الذين ضمّتهم وإياها رابطة المبدأ السياسي ،
أنهم لو عرفوا قصدها ووقفوا على نياتها ، لحولوا خنجرها إلى صدر غير صدر
« مارا » . لأن المرض كان قد أهلك « مارا » وكان لابد من أن يبلغ به إلى
الموت في أقرب حين .

إن شارلوت كوردای « ملاك القتل » كما يدعوها لامارتين تنزل في نظر

الكثيرين منزلة تمثل فيها صفات البطولة الصحيحة . لهذا حق لشارلوت أن تتمخر بان يكون من أسلافها « بيير كورنى » أعظم بطل من أبطال الادب الفرنسى ، الذين خطت يراعتهم مأساة محزنة فى تاريخ فرنسا .

ولدت شارلوت كوردای فى العقد السابع من القرن الثامن عشر . ولقد شهد ذلك القرن مولد كل أبطال الثورة الفرنسية وبطلاتها .

فى منزل ريفى مشيد على النسق النورماندى فى « روستراى » وفى اليوم السابع والعشرين فى شهر يولييه سنة ١٧٦٨ وضعت السيدة « مارى شارلوت جاكلين دى كوردای » خامس أطفالها وثالثة بناتها ، مارى شارلوت ، التى عرفت فيما بعد بين ذوى قرباها وفى التاريخ باسم « شارلوت كوردای » . أما أسرتها فتتنمى الى طبقة الاشراف ، وأبوها ممن يعرفون فى فرنسا باسم اشراف الريف الذين يعيشون فى دخل ما يملكون من عقار .

والدها « چاك فرنسوا دى كوردای » سيد « دارمون » وحائز لرتبة فارس . وكان من عادته ان ينشئ أولاده على أخص القواعد الاقتصادية . وينسب المؤرخون الذين ترجموا عن حياة شارلوت كل ما فى اخلاقها من حب النظام والرغبة فى بحث مفصلات كل موضوع يلقى اليها ، أو يعرض لها ، تلك الصفات التى تم عنها كل أعمال شارلوت وحوادث حياتها ، الى الطريقة التى جرى عليها أبوها من تربيته . كانت شارلوت طفلة حسنة ذهبية الشعر جميلة الملامح مليحة الطلعة . وكثيرا ما كانت تسترسل مع أحلامها فى صمت وسكون . وقد تمعن فى التطواف منفردة فى الغابات والحقول التى كانت تحيط بمهد نشأتها . وكانت شارلوت لاتزال فى سن الطفولة عندما المت بأبيها كارثة مالية انقصت من دخله بحيث أصبح من وسائل سعادته أن يعهد ببعض أطفاله الى عناية ذوى قرباد من العصب .

كانت شارلوت من نصيب عم لها قسيس واسع العلم على القدر موفور المال ، كفلها وعلمها القراءة فى كتاب توارثته أسرتها ، وهو عبارة عن نسخة كاملة من مؤلفات سلفها العظيم « بيير كورنى » .

نهلت شارلوت من ذلك المنهل العظيم ، منهل البطولة الوطنية الذى ظل طوال حياتها النبع الفائض فى صدرها بكل ما أوحى اليها .

ولم تبلغ شارلوت الثانية عشرة من عمرها حتى فقدت أمها ، وقد ذهبت حياتها ثمناً لسادس أطفالها .

عاشت أسرة « دي كورداي » زماناً في بلدة « كاي » بينما كان السيد « دارمون » منهمكاً في دعوى قضائية أقامها ضد أقارب زوجته المتوفاه . دعوى من تلك الدعاوى التي كان يفتبط بها إذ ذاك أشرف الريف ويلذ لهم الاشتغال بها . والظاهر أن السيد « دارمون » قد نجح في دعواه ، لأن شارلوت استطاعت في سني شبابها أن تعيش مستقلة عن أهلها بعيدة عن بيتها بما كانت تملك من حطام يقوم بأودها . وقد قالت شارلوت لقضاتها - « إني أعيش من غلة ما أملك من عقار » .

وكان السيد « دارمون » قد أدخل شارلوت وأختها في مدرسة « سان ترينيتي » الشهيرة خلال اقامته ببلدة « كاي » . وكانت تلك المدرسة معهداً أرسطوقراطياً راقياً ، ولم يكن ليقبل أكثر من خمس فتيات شريفات ممن اخني عليهن الدهر يسميهن الملك بنفسه . ولم يقبل المعهد أن تنخرط شارلوت وأختها في سلك تلميذاته الا بتوسط المقامات العليا ذوات النفوذ الكبير في فرنسا : هنالك قضت شارلوت بضع سنين واستطاعت بمواهبها أن تحوز منزلة ونفوذاً في ذلك المعهد . ومما لاشك فيه أن شارلوت كانت تظل هنالك مكبة على دراستها أو تبلغ درجة الرياسة أو تصبح راهبة متعبدة لولم تطرد هي ورفيقاتها من المعهد عندما قررت الجمعية الوطنية عام ١٧٩٠ اغلاق جميع معاهد العلم :

عادت شارلوت لتشارك أباه وأخوتها عيش الريف . على أن إرادتها الحديدية وآراءها المتطرفة ، لم تكن لتجعل حياتها في وسط أسرتها حياة مرضية لمثيلاتنا ، فبينما كان أبوها وأخوتها من حزب الملك ومن غلاة الكاثوليكية ، كانت شارلوت ملقية بنفسها في احضان المذهب الشكي ، ومن غلاة الجمهوريين : وكثيراً قالت لقضاتها - « إني كنت من حزب الجمهورية ، من قبل أن يعصف بفرنسا عاصف الثورة » كانت شارلوت تميل الى الدرس والاسترسال مع الفكر : مثلها في ذلك كمثل مدام « زولان » قريبتها . وقضت معظم سني حياتها الاولى مصطحبة تاريخ أبطال اليونان وروما ، ونهلت من فلسفة القرن الثامن عشر بقدر ما وحصل مستطاعها : أما تراجم « بلوتارك » فكانت سلوتها ورفيقها في الحل

والترحال . فكانت تتبّع حوادث الثورة الفرنسية بعناية تامة واهتمام ليس وراءه غاية لمستزيد :



مدام رولان ١٧٥٤ - ٨٩٢

فلاغربة اذن إذا رأينا «شارلوت كورداي» بعد بضعة أشهر من بقائها في احضان أسرتها، عائدة الى بلدة «كاين» مرة أخرى . هنالك عاشت شارلوت مع احدي قريباتها المسنات مدام «دي برتفيل» حيث كانت تسكن في بضع حجرات في بيت متهدم قديم يعرف باسم «الجران مانوار» في وسط المدينة .

استكملت شارلوت في ذلك الوقت جمال الفتاة في شبابها وفتوتها . ولقد احتدم الجدل

بين الذين ترجموا عن حياتها على لون شعرها وعينيها ، أكانتا زرقاوين أو رماديتين . وعلى قامتها ، أكانت طويلة القامة أم قضيفتها ، وقد يمكن أن تتخذ الاوصاف التي ذكرت في جواز سفرها من كاين إلى باريس دلالة حسنة على أوصافها ، ولو أنه يصح أن يتطرق اليه الخطأ ، كما استدل على ذلك من الجوازات التي أعطيت خلال الحرب العظمى .

كانت شارلوت ، على ما جاء في جواز سفرها ، ذات شعر كستنائي قاتم ، رمادية العينين ، تبلغ خمسة أقدام طولا أو تزيد قليلا . أما أخلاقها وسلوكها فموضوع لم يختلف فيه اثنان . فكل الذين ترجموا عن حياتها متفقون على أنها كانت رضية الخلق مهيبة الطلعة لا تتكلم الا قليلا في المجتمعات ، ولم تشترك في مناقشة إلا وأثارت إعجاب محدثيها بما كانت تلقى عليهم من الآراء ، على قلة ما كانت تشترك في المناقشات . من ذلك حادثة وقعت لشارلوت في مأدبة أدبتها العائلة احتفاء بأخيها وصديق له كان الأمل معقودا على أن تقترن به شارلوت ، وكان كلاهما على سفر للاشتراك في جيش الهجرة ، واقترح أحد الوجود أن يشرب نخب الملك . فلما امتنعت شارلوت على أن تشرب نخب الملك ، قال لها أحد الجلساء : أترفضين أن تشربي نخب الملك ، على ما يتصف به الملك من دعة ، وعلى ما في أخلاقه من فضيلة ؟ فأجابت شارلوت قائلة : « إني أعتقد أن الملك نبيل فاضل . غير أنه لم يحل بين

شعبه والمصائب !!» غير أن تطرف آراء شارلوت الجمهورية كانت كأراء «اولمب دى غوج» لم تصدها عن استنكار قتل الملك لويس السادس عشر .

كانت شارلوت فى كل ذلك الوقت مكبة كل الا كباب على درس الحوادث المتتالية ، ولم يفتها أن تقرأ الجرائد الشهيرة ، وأن تدرس كل الرسائل التى كانت تفيض بها دور الطباعة على الناس ، سواء أ كانت الى جانب الثورة أم ضدها . وكانت تشاطر الجيرونديين آراءهم ، وتعطف على مبادئهم ، وعلى الأخص بعد أن اتخذ الجيرونديين فى ٣١ مايو سنة ١٨٩٣ بلدة كاين مركزاً للدعوة الى الانتفاض على حزب اليعقوبيين ، الذين كانوا قابضين على زمام الحكم . وكان ييزو وبتييون



شارلوت كورداي ١٧٦٨-١٧٩٣

ولوفيه وباربارو ، وغيرهم من زعماء حزب الجيروندي محرضون أهل نورمانديا على الزحف على باريس ليحطموا الجمعية الوطنية . وكانت شارلوت تحضر اجتماعاتهم . وطالما سحت مدامعها على ذكر الفوضى التى كان يصفها الجيرونديين ذائعة فى نواحي معبودتها «فرنسا» . على أن شارلوت كانت ذات طبيعة عملية . فلم تتحقق يوماً أن هنالك شراً ، إلا وعمل عقلها على اكتشاف ما يذهب به . وطبع فى عقلها إذ ذاك أن «مارا» الذى

كان يلقب بصديق الشعب ، لم يكن فى الحقيقة إلا عدو الشعب ، وأنه السبب فيما يلاقى الناس من الشدائد .

كان «مارا» من أشهر الصحفيين ، ومن أخصب كتاب الرسائل إنتاجاً فى ذلك الحين . وكان مصاباً بمرض جلدى مستعص أحدث فى عقله أنراً جعله يستحب الدماء ، ويستطيب سفكها ، حتى أصبح شغوفاً باهراقها : وكانت شارلوت تقرأ بامعان كل ما يظهر من آداب الثورة ، حتى أصبح «مارا» فى نظرها عقبة فى سبيل هناء فرنسا ، ودجال يفسد على المسيحية روحها ويهدم كيائها . وقام فى ذهنها أن قلم «مارا» إن انقطع عن الكتابة ، ووقف عقله عن ابتكار أساليب الشقاء والشدّة ، سلمت فرنسا من مخالب الفوضى ، وارتدت الى السلام : لم تسأل نفسها يوماً : «ألا يمكن أن يحل مستبد آخر محل مارا؟» . لم تعرف نفسية

شارلوت سبيلا الى تناحر العواطف وتشاحنهما ، كما أحب سلفها العظيم « بيير كورنى »
أن يفعل بنفسه . ولم يلبث أن قام فى ذهنها أن « مارا » لم يكن إلا حيواناً
مفترساً يكاد يضحى بفرنسا على مذبح الحروب الاهلية ، حتى صممت على اهلاكه ،
وما أسرع ما خطت نحو قصدها وأقدمت نحو غايتها المحزنة . طرأت عليها هذه
الفكرة فى ٣١ مايو سنة ١٨٩٣ كما أخبرت قضايتها . ولم يمض على ذلك التاريخ
سبعة أسابيع قصار حتى أتمت غرضها ووصلت الى غايتها .

لم تقض شارلوت تلك الاسابيع السبعة بلا عمل ، بل كانت تنهياً للهبوط الى
باريس ، وكانت تعمل جهدها للحصول على جواز للسفر ، موهمة أن لها صديقة
هاجرت الى سويسرا وأن الفقر عضها هنالك بنابه السام ، وأنها تريد أن تتقدم
الى الجمعية الوطنية فى باريس لتعرض عليها بالنيابة عن صديقتها شكوى ، وعملت
على أن تأخذ خطابات توصية الى أشخاص فى باريس قد تستعين بهم . وأخذت
شارلوت خطابات التوصية من زعماء حزب الجيرونديين ، وكانت كثيرة الاختلاف
الى باربارو ، وكثيرا ما حادثته فى المسائل السياسية ، وزودها بخطاب الى
« دوبريه » عضو الجمعية الوطنية . ولقد قال باربارو بعد موت شارلوت أنه قد
شعر فى آخر مقابلة له مع شارلوت بشيء فى صوتها ملأه غموضاً وشكاً ، ولم يفقه
له سبباً . ولشد ما كان يود باربارو أن يعرف غايتها . فقد قل فيما بعد : « إننا
نحن الجيرونديين ، لو كان من غاياتنا أن نرتكب جريمة من يد مثل يد شارلوت ،
لما اتخذنا مارا موضعاً لانتقامنا . غير أن شارلوت لم تشر الى غرضها بكلمة ، ولا
بنظرة ، ولا بإشارة » .

وليس من غرابة فى أن تلاحظ مدام برتفيل ، التى كانت تساكنها شارلوت ،
أن الفتاة فى شغل دائم خلال تلك الآونة . دخلت عليها مرة فاذا بها غارقة فى
مدامعها . وما عتمت شارلوت أن جاوبت مدام برتفيل قائلة : « إنى أبكى على بلادى
وما أصابها من الشقاء ، وما نزل بأسرتى ووطنى من البلاء . لانه مادام « مارا »
على قيد الحياة ، فلا يستقر لسان دم فى هذه الدنيا »

قبل أن تغادر شارلوت بلدة كاين لآخر مرة ميمدة شطر باريس ، ذهبت الى
الريف لتودع أباه وإخوتها ، مخبرة إياهم أنها ستهاجر الى انجلترا ، حيث كان لها

كثير من الأصدقاء . ولما عادت الى كاين أخبرت مدام برتفيل أنها ذاهبة إلى الريف لتشغل نفسها بتصوير المناظر الطبيعية .

وفي اليوم التاسع من شهر يوليه بدأت شارلوت رحلتها حاملة حقيبة صغيرة للملابس ، ونسخة من تراجم بلوتارك ، ولوحاً كبيراً من ورق التصوير ، كان آخر ما أعطت إلى طفل صغير ابن جار لها يسكن المنزل الذي كانت تسكنه . صادفته شارلوت في آخر السلم فنادته : « إلى يا روبرت . خذ هذا . فإنه لك . كن ولدا طيب القلب وقباني . إنك لن تراني بعد الآن . » ولما أن قبلها شعر بدموع حارة تجري على خديه من فوق خديها .

في جلبة باريس فتن شاب نبيل بجمال شارلوت ، وكان مسافراً معها . فسألها عن اسمها واسم أسرتها ليتخذها من بعد زوجاً له ، غير أن شارلوت تمنعت بما يسمح المقام واعدة إياه بما طلب إليها فيما بعد .

وفي ظهيرة اليوم الحادي عشر من شهر يوليه وفدت مهاجرة كاين إلى باريس واستأجرت حجرة في أوتيل دي بروفيدانس رقم ١٧ بشارع فيو أوغسطين . كانت متاعب الزوى قد أخذت من شارلوت مأخذها ، حتى أنها هجعت منذ الساعة الخامسة ، ونامت نوما هادئاً إلى صبيحة اليوم الثاني ، يوم الجمعة . ولما استيقظت ذهبت إلى منزل العضو دوبريه ، وهي على أمل في أن تراه وتقدم إليه وصية باربارو . ولكنها أخبرت أنه في الجمعية ولا يعود قبل المساء . فعادت شارلوت إلى فندقها وافقت يوماً بين القراءة والتأمل ، حتى إذا كانت الساعة السادسة ، عادت إلى منزل دوبريه فوجدته على المائدة يتناول طعام العشاء ، غير أنه ترك مائدته ليحدث شارلوت في الصالون ، ووعدّها بأن يصحبها في الغداة لترى « جارا » وزير الداخلية ، ولتحدثه في أمر صديقتها التي تقطن سويسرا . وهنا نصحت شارلوت لدوبريه أن يفر من باريس إلى كاين قبل مساء الغد وكان سلوكها كما قال دوبريه غامضاً ، وكلماتها أشد غموضاً . وفي مساء ذلك اليوم ، يوم الجمعة ، صودرت أملاك دوبريه ووضعت تحت تصرف الحكومة . وكان دوبريه متهماً بالعطف على الجيرونديين المغضوب عليهم . ومع كل هذا فقد وفي دوبريه بوعدده وصحب شارلوت ليقابلها « جارا » ولكنها لم يقابلاه بسبب ما ، ونصح دوبريه لشارلوت بأن تنصرف عن الاهتمام بشأن صديقتها ، لأنها لم تحصل منها على وكالة

تسوغ لها الكلام في شؤونها . ثم عاد دوبريه مع شارلوت إلى فندقها وتركها هنالك .

خرجت بعد ذلك شارلوت من نزلها ويمت شطر الباليه رويال . وهنالك اشترت مديّة من مدى الموائد مرهفة ياترة ، لاخنجرآ كما يقول البعض ، ودفعت فيها ثلاث فرنكات ثمناً ، ثم اخفئها تحت منديلها وجلست هنيهة تحت أعمدة القصر كان تصميم شارلوت أن تقتل مارا في قاعة الجمعية . غير أنها تيقنت من أنها اذا أتت ذلك الفعل قتلها العامة ومزقوها اربا ، وأنها ان ماتت هذه الميته ذهبت غير معروفة ولا مذكورة بلسان ، ولم تترك من وراءها أثراً ، فتضر بسمعة أسرته .

منذ أن وصلت شارلوت إلى باريس تواترت لديها الاخبار عن مرض مارا وأنه لا يستطيع أن يذهب إلى الجمعية ، بل انه لا يقدر على مغادرة منزله . ولم يكن لديها اذ ذاك من وسيلة لانقاذ غرضها الا البحث عن طريقة أخرى ، ولذلك اضطرت على الضد من ارادتها أن تلجأ إلى الخديعة ، فعمدت إلى كتابة مذكرة لترسل بها إلى مارا ووعدته فيها أن تعطيه أخباراً هامة عن حركات كايين الثورية ، أما تاريخ وصول تلك المذكرة إلى مارا وطريقة ايصالها فموضوع يختلف فيه المؤرخون . فيقول البعض بان شارلوت أودعت البريد رسالتها ، وانها لم تصل إلى مارا الا في المساء قبل زيارة شارلوت الاخيرة لمنزله ويقول البعض الآخر ان شارلوت سلمت الرسالة في منزل مارا بنفسها ، ولا شك في انها زارت منزله مرتين على الاقل : الاولى في الصباح ، والاخرى في المساء ، حيث كان يقطن رقم ٢٠ بشارع الكوردلييه ، والآن يسمى شارع مدرسة الطب . ولا ريبه أيضاً في أنها اخفقت في أن تقابل مارا في المرة الاولى . أما الفترات الواقعة بين الزيارتين فقضتها شارلوت في فندقها منهمكة في كتابة اعتذار وتبرير للاجبال القادمة عن فعلتها ، وخطاب لمارا تحضه فيه على مقابلتها وذكرت له فيه انها تعيسة وأنها قاست كثيراً من الآلام في الدفاع عن قضية الحرية .

كانت شارلوت لابسة في الصباح ثوبا قاتم اللون ، غير أنها ارتدت في المساء ثيابا بيضاء ناصعة ، ويقول البعض ان ثيابها كانت بيضاء مزركشة بنقط قاتمة : وكيفما كانت ثيابها فالثابت أن شارلوت قد عنيت كل العناية بملابسها . وفي الساعة

السابعة من المساء خرجت من فندقها ، وأخذت سميتها نحو شارع الكوردييه .
ولما وصلت إلى ذلك الشارع أوقفت عربتها تجاه منزل مارا ، وهناك رفض
الكونسيرج — أى الحارس — أن يسمح لها بالدخول

كان مارا مريضاً أربع سنوات متوالية قضاهها فى الم وسقم ، حتى قال يوماً
أنه ينزل عن كل ماهو محوط به من شرف وعظمة فى هذه الدنيا تلقاء أيام يقضيها
ممتعاً بصحة جيدة . وعلى الرغم من ذلك عاش مارا فى خوف مستمر من شبح
القتل والانتقام . ومنزل مارا صاحب ومدير جريدة « صديق الشعب » كان
فى الواقع مطروقاً بالزائرين والزائرات ، غير أنه لم يكن يسمح بقاء مارا إلا للاصدقاء
الاخصاء والزائرين الذين يحملون رسائل توصية مبنية لاشخاصهم وأغراضهم .

رفضت شارلوت فى هذه المرة أن تصد عن باب مارا : وعند ذلك لاقتها
سيمون افيرار خلية مارا لدى الباب ، وسألتها ان كانت هى كاتبة الخطاب الذى
وصل ليد مارا فى ذلك الحين . فلما اجيبت بالاجاب عادت لتعرف ان كان مارا
على استعداد للملاقة الزائرة . وقبل مارا أن يلاقى شارلوت وقادت سيمون الزائرة
إلى الحجرة الداخلية حيث كان يعمل مارا ، وحيث كان محل استحمامه معاً .
هنالك خرجت سيمون ولم تنس أن تترك الباب نصف مغلق حتى تستطيع أن
تسمع أقل حركة تحدث فى الحجرة :



جان بول مارا ١٧٤٣ — ١٧٩٣

وجدت شارلوت نفسها فى حجرة ضيقة
ضعيفة الضوء . وكل ما وجدت من الاثاث
فى تلك الحجرة حوض الاستحمام الذى كان
يقضى فيه التعيس مارا ليله ونهاره . كان يظل
غاطساً فى الماء إلا رأسه واكتافه واعلى صدره
وذراعه الايمن وكان مارا اذذاك لا بساً عصابة
قدرة تغطى شعره الكث ، وتبرز من تحتها
جبهته الصغيرة المسطوحة وعينييه الضيقتين ،
وفه الواضع الخفيف . ولم يكن فى استطاعة مارا

أن يحتمل عبء الحياة الثقيلة إلا على تلك الحال ، يغمر الماء أكثر أعضاء جسمه .
وكان يتصل بحوض الحمام لوح من الخشب يستعمله مارا كمائدة للكتابة تغطيها

الاوراق والخطابات المفصوصة والمقالات غير الكاملة : وبجوار الحمام مائدة أخرى من خشب البلوط عليها دواة من الرصاص .

ولما أن دخلت شارلوت كان مارا قابضاً على قلمه يكتب في ورقة وقد سود نصفها بحبر دواته . وكان خطاب يريد أن يبعث به إلى الجمعية يطلب فيه نفي من بقي من أسرة البوربون في فرنسا .

سأل مارا شارلوت عن الحالة في نورمانديا ، وسأل عن أسماء أعضاء حزب الجيرونديين الذين فروا إلى كاين ، ولما أجابت قال لها مارا : « حسننا . قبل أن يمر أسبوع ستعمل فيهم الجيولوتين » :

ولم يكده مارا يتفوه بهذه الكلمات حتى شهرت شارلوت مديتها التي اشترتها في صبيحة ذلك اليوم من تحت منديلها ، ومن غير أن تخطيء قصدها غيبتها حتى نصابها في قلب مارا ثم نزعتها . وكان الموت موقوتاً ، ولم يترك لمارا من وقت للاستغاثة وطلب المعونة الا أن نادى سيمون للنجدة فأسرعت اليه ووجدت رسول صاحب المطبعة والطاهي في صراع مع شارلوت حتى استقويا عليها والقيها على الأرض . وعبتاً حاولت سيمون أن تقف سيل الدم المنسدف من قلب مارا بيديها . وضمد طبيب أسنان كان يعيش في نفس المنزل جرح مارا ، ثم نقل من مستحضره إلى فراشه . غير أن نبضه كان قد وقف وانتهت حياته .

من بين الحوادث التي وقعت ساعة القتل حادثة واحدة كادت أن تفقد معها شارلوت ضبط نفسها وعواطفها . فان حزن سيمون افيرار وأختها كاترين كان عميقاً مؤثراً . غير أن شارلوت قد عاودتها فكرة أن مارا لم يكن إلا حيواناً متعطشاً للدماء ، بعيداً عن الإنسانية . حينذاك قالت شارلوت « اني قتلت شخصاً لا نقد الفأ » غير أن عبرات سيمون وأختها قد أظهرت لشارلوت أن فريستها لم يكن إلا بشراً من نوعها ، وأنه رجل جدير بأن يحبه النساء

لم يترك لشارلوت في تلك البرهة من الوقت ما يمكنها من الانصراف الى التأمل العميق . لأن الغرفة كانت قد اكتظت بالناس . وانتشر خبر مقتل مارا وذاع في أحياء المدينة ، ووفد على منزله سيل من البشر تماوج صفوفه ، وما أسرع ما أقبل ضباط الشرطة وأعضاء لجنة الامن العام . وبقي أعضاء اللجنة في الغرفة الخارجية حيث بدأ سؤال شارلوت بينما كانت جثة مارا في الحجرة الثانية تلوثها الدماء

لقد عمل المحققون جهداً مستطاعهم ليستخلصوا من شارلوت أى شىء يستدل منه على أنها أتت فعلتها تحت تأثير الجيرونديين المطاردين . غير أن شارلوت احتفظت فى ذلك الموقف الرهيب المخيف بمواهبها وقوة نفسياتها .

تجراً أحد المحققين على أن يضع يده تحت ثوبها على أمل أن يعثر على ورقة تثبت اتهام الجيرونديين . وكانت شارلوت موثقة اليدين ، ولم يكن فى مستطاعها أن تدافع عن نفسها . غير أنها دفعت اعتداء ذلك الرجل بجسمها وبقوة وبشدة ألقت به على الأرض ، حتى لقد فككت أزار قميصها من الامام . أما بقية أعضاء اللجنة فقد أخذوا بفضاعة العمل الذى أتاه زميلهم ووحشيته . حتى أنهم أمروا بحل قيودها لتستطيع أن تصالح ملابسها وسمح لها بأن تلبس قفازاً تحت أصفادها . ظل التحقيق مع شارلوت قائماً حتى الساعة الثانية بعد منتصف ليل الأحد ، إذ سمح لها بأن تذهب الى سجن الآبى .

بقيت الجماهير محيطة بمنزل مارا وقد علت أصوات الناس بطلب الانتقام ممن أودت بحياة « صديق الشعب » . فلما فتح الباب وظهرت شارلوت هجمت الجماهير عليها بقوة ووحشية صائحة صيحة الغضب . وهنا خانت شارلوت قواها لأول مرة ، وتولاهم الاغماء ، فلما استفاقت عجبت كيف أنها لا تزال على قيد الحياة .

شغلت شارلوت فى سجن الآبى الذى اختير لسجنها نفس الغرفة التى سجنّت فيها مدام رولان من قبلها ببضعة أسابيع . وبعد ثلاثة أيام نقلت شارلوت الى سجن « الكونسيرجيرى » وهناك كتبت خطابين . أما أسلوبهما فاستمد من أسلوب سلفها العظيم « بيير كورنى » . ولقد نالا شهرة واسعة كما أملت شارلوت حين أنشأتها . كان أحد الخطابين لباربارو والآخر لأبيها . وفى كلا الخطابين تعددت أن تظهر حقيقة نفسها .

كتبت شارلوت الخطابين وهى على علم بأنه ربما يقرأها غير باربارو وأبيها . فحسنت فيهما خطورة الانتقاض الجيروندى وأهميته لأنها لم تكن تعرف أن حركة الجيرونديين كان قد قضى عليها ، وأن فعلتها تكاد تكون النتيجة الوحيدة لدعوة الجيرونديين فى نورمانديا ، وأن ثوار الجيرونديين قد فعل بهم جيش اليعقوبيين فى فرنون وانتهى من أمرهم .

أخبرت باربارو فى خطابها إليه ان ما ألقت من شجاعة المتطوعين الجيرونديين

الذين رأتهم ميممين نحو باريس في الثامن من شهر يولييه حملتها أخيراً على اغتيال مارا ، وذكرت له في الخطاب أن عويل النساء في ساعة القتل وصراخهن كان السبب الاوحد الذي هيج أعصابها . ثم قالت في خطابها : « إن من يريد أن ينقذ بلاده لا يجب أن يتلكأ مفكراً في الثمن المبذول » .

وكتبت الى أبيها انها كانت مصممة على أن تموت يوماً غير معروفة ولا مذكورة . غير أنها ذكرت في جواز سفرها اسمها الحقيقي وكان كافياً لمعرفة شخصيتها وانها لتشعر بفخر عظيم بعد أن أتت فعلتها ، وان ما عملته قد أنقذ بلادها لأن السلام سيحل محل القوضى . وبعد ذلك أرخت خطاب أبيها بهذه العبارة : « اليوم الثاني من تحقيق السلام » .

ولقد ذكرت ما سوف تلاقيه من الموت المحتوم جزاء عملها فقالت في خطابها : إن أسرتها قد تسر وتبتهج كلما فكروا أنها — « في سلام ودعة حيث تشارك بروتوس وغيره من أبطال التاريخ القديم منزلتهم الرفيعة في عالم الغيب » . ثم انها سألت أباهما الصنفح عنها لانها تصرفت في حياتها من غير أن يأذن لها بها . قالت : « إني إن كنت قد أغريتك على اني ذاهبة الى انجلترا ، فذلك لاني أملت في أن أموت غير معروفة من أحد . واني لامت اليك أن تنساني ، ولديك الذين خلفتهم في كايين يقومون بعبء حمايتك . ولقد اخترت للدفاع عنى المحامي جوستاف دوليه دى بوليكلولان . وهذه مسألة شكية فقط ، لأن مثل فعلتى لا يَحتمل دفاعاً . أستودعك الله يا أبى العزيز . واني لاناشدك الله أن تنساني ، واذا لم تنسنى ، فلا أقل من أن تسر بما هيا لى القضاء والقدر . إن غرضى شريف . أقبل أختى العزيزة التى أحبها من كل قلبى »

اعتقدت شارلوت انها أصبحت من بطلات عصرها ورغبت فى أن تخلد ذكراها . لذلك سمحت بأن تصور فى السجن وأوصت المصور أن يرسل نسخة من صورتها الى أسرتها . ولقد ذكر المصور عناية شارلوت بزینتها وانها اتفقت وهى فى السجن ست وثلاثين فرنكا على المعطف الذى كانت ستلبسه يوم اعدامها وكانت محبة للنظام فى كل أعمالها وطرق حياتها . وكان فى جيبها إبرة حياكة فى ساعة القبض عليها . وقبل أن تغادر كايين لم تنس أن تترك لمريبتها ما يقوم بأودها وأرسلت من الحوانيت بعض هدايا للبنات صديقاتها اللاتى صرفت وإياهن زمان .

شبابها ، ووزعت عليهن كل كتبها ما عدا نسخة من ترجم بلوتارك استصحبتها معها .
ولقد حاول الذين حاكموها فى المحكمة العسكرية عددة مرات أن يستخلصوا
منها اعترافا يمكن أن يبرهنوا به على أنها كانت مدفوعة لارتكاب جريمة القتل
بتحريض الجيرونديين .

سئلت مرة : « من أوحى إليك بتلك الكراهية الشديدة »
فقلت : « لم أكن محتاجة الى وحي أحد . فان كراهيتى كانت كافية من ذاتها »
س : « إن ما أتيت من فعل لا بد من أن يكون قد اقترح عليك »
ج : « إن الاعمال لا تنفذ تنفيذا حسنا الا اذا أتت من قلب الانسان مباشرة »
لقد كاد حزن سيمون افيرار أن يفقد شارلوت ضبط نفسها وعواطفها فى
المحكمة كما حصل لها من قبل ساعة قتل مارا . ولم تستطع أن تصفى لشهادة سيمون
فأوقفتها معلنة أن « نعم أنا التى قتلت » كذلك لم تستطع شارلوت أن تنظر
الى المدية التى قتلت بها عند ما عرضت عليها ، فأدارت رأسها بعيدا عنها وقالت :
« نعم أعرفها » .

ولو لم يقيم فى نفس شارلوت هذين الانفعالين ، انفعالها من حزن سيمون
ومرآها المدية ، لبقيت طول مدة المحاكمة حافظة لقواها النفسية كاملة .
ألقت شارلوت ان أحد ضباط الحرس الوطنى حين المحاكمة كان مشغولا بأخذ
صورتها . فابتسمت وأدارت وجهها نحوه حتى تتمكنه من أن يحسن تصويرها .
وكان المصور « هويه » الذى بدأ بأخذ صورتها من قبل كاد أن يكمل ما بدأ به فى المحكمة
بعد أن تم اتهام شارلوت وصدر حكم الموت عليها ، وعادت إلى سجنها
التقضى آخر ساعاتها فى الحياة ، أرسلت إلى المصور « هويه » ليكمل الصورة
وأوصته أن يرسل نسخة منها لاسرتها . وقبل أن يتم المصور عمله طرق المنفذون
باب الحجر . ولما رأت المقرض والقميص الاحمر ، امتنع لونها قايلا وقالت
« أتم كل شئ »

ثم نظرت فى الصورة غير الكاملة وقالت للمصور « سيدى . لا أعلم كيف
أشكرك على المتاعب التى تجشمتها من أجلى » ثم تناولت المقرض من المنفذ وقصت
خصلة من شعرها وأعطتها للمصور قائلة « سيدى . أشكرك جزاء ما خدمتنى .
ان هذه الخصلة هى كل ما أستطيع أن أعطى اليك عنوانا على اعترافى بجميلك »

ولما دخل قسيس إلى حجرة سجنها أخبرته أن يشكر عنها الدين أرسلوه إليها ،
وانها لا تريد أن تقوم بأى واجب كهنوتى قائلة — « ان كل ما أستطيع أن أقدم من
تضحيات لله ، هي قطرات الدم التى أرققتها ، ودمى الذى أ كاد أهدره الآن »
فى الساعة التاسعة من مساء ١٩ يوليه مرت شارلوت لآخر مرة تحت اقبية
سجن « الكونسيرجيرى » ودخلت عربة السجن التى كانت فى انتظارها .

كانت الجماهير تتماوج متكاثرة حتى أن نقل شارلوت من السجن إلى ميدان الثورة
استغرق ساعتين كاملتين . ولم يكد يبدأ نقل شارلوت لتنفيذ الحكم فيها حتى هبت
عاصفة شديدة على باريس . غير أن السماء انكشفت بسرعة ، وما كادت العربة تمر
على الجسر وتنحدر إلى شارع سان أونورى ، حتى بزغت شمس المساء فى كل ابتهما
وعظمتها ، فغيرت أشعتها المنعكسة من ملامح الشهيدة عندما حملت فى وسط
الجماهير . ولو أنها تماالكت كل قواها .

ولما وقع نظر شارلوت على الجيولوتين امتنعت هنيهة . ولما فصلت رأسها عن
جثتها ، حملت الوحشية أحد مساعدى الجلاد على أن يحمل الرأس ويرمى به إلى الجمهور .
ذلك لانه كان من الشغوفين بمارا . ولقد قال البعض ان وجه شارلوت قد احمر قليلا :
وهناك قامت ضجة شديدة لم تهدأ حتى التى ذلك الوحش الضارى فى أعماق السجون

ان فتاة فى جمال شارلوت ودعتها ، لا بد من أن يكون لها من يعجبون بها .
ولقد مر بنا ذكرك ذلك الشاب الذى رافق شارلوت حين سفرها ، ولم يكد يراها
حتى وقع فى شرك غرامها ، وأراد أن يطلب يدها للزواج . وليس فى مستطاعنا
أن نعرف إن كانت شارلوت قد أجابت لبعض محبيها داعى غرامهم أم أن كراهيتها
لمارا كانت قد قضت على كل شهوة أخرى فى قلبها .

ومما يروى أن شارلوت قبل أن تغادر كاي كانت تكتب شاباً من فتيان
المدينة يدعى فرانكلين ، تطوع فى جيش الجيرونديين وحضر استعراض ٨ يوليه .
ولما أن مر هو ورفاقه تحت شرفة المنزل الذى كانت تقطن فيه شارلوت ألفى بيتيون
وهو أحد أعضاء حزب الجيروندي ، أن شارلوت قد امتنعت قليلا وفاضت شئونها ،
إذ ذاك سألها بيتيون : « ألا تريد أن يذهب المتطوعون ؟ » — ولكنه
لم يلق جواباً :

لما ماتت شارلوت انقطع فرانكسين في أعماق الريف حيث مات بعد قليل .
موصياً أن تدفن خطابات شارلوت وصورتها معه في قبره . وبعد أعوام ، على ما
يروى بعض المؤرخين ، فتح التابوت ، وفيه اثر على خطابات وصورتها .

بين أيدينا قصة أخرى أصح مأخذاً وأقرب تصديقاً . هي قصة ذلك الشاب
الالماني « آدم لوكس » الذي وفد من « ماينز » ، وكان من أولئك الذين يعتقدون
بأن الثورة لا بد من أن تنتج أقصى السعادات وأكبر المنافع التي لا يقدرها
اعتبار ولا تحصرها مخيلة . وكثيراً ما حاول « لوكس » وصحبه الفتيان أن يكون
لمدينتهم شرف الانضواء تحت لواء الجمهورية الفرنسية . لذلك أوجد « لوكس »
ليذهب الى باريس ويلقى على الجمعية مطالب مدينته ورغبات أهلها . غير أنه من
سوء الحظ لم تكد أقدام ذلك الشاب تطأ أرض فرنسا حتى تبددت أحلامه .
وذهبت هباء : رأى والأسف يملأ جوانحه فتاة جميلة ، هي في الواقع أنبل
رسول للحرية ، قد ضحت بحياتها في سبيل القضية العامة .

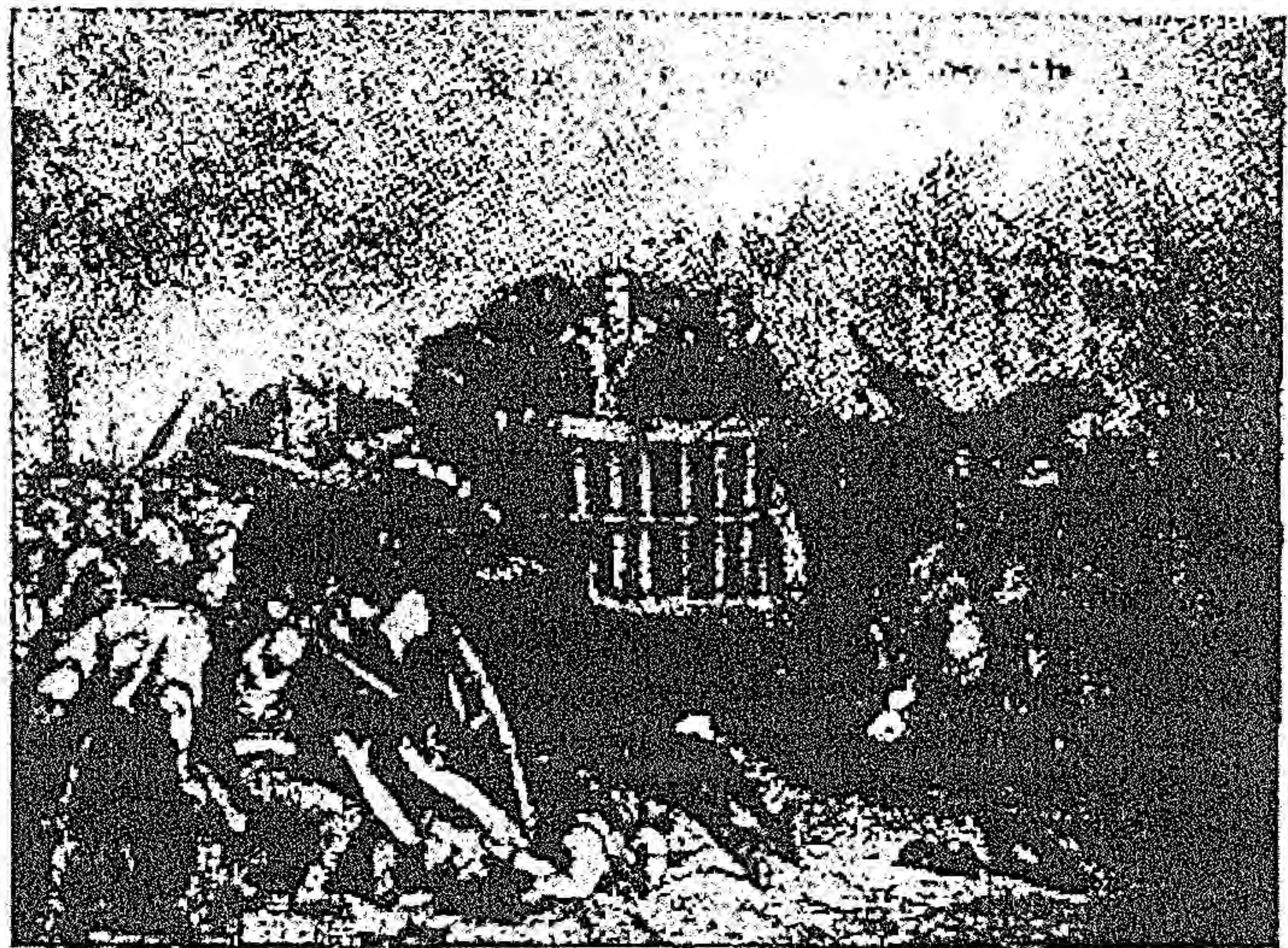
لم ير « لوكس » شارلوت سوى مرتين . مرة في المحكمة الثورية ، وأخرى فوق
آلة الاعدام ، ومنذ ذلك الحين ثبت في رأس « لوكس » فكرة أن يشاطرها
خاتمة حظها في هذه الحياة . لقد خيل اليه أن الجيليوتين تلك الآلة الجهنمية التي
ذهبت بحياة شارلوت لم تكن إلا مذبحاً مقدساً . لذلك ثشوف أن يموت تحت
فأسها الباترة ، فحمل على الجمعية الوطنية ووجه لها سهام مسددة من النقد والتجريح
لتحبوه ذلك الشرف ، وطلب من الوقت نفسه أن يقام لشارلوت تمثالاً لذكراها
ينصب حيث ماتت وأن يكتب عليه هذه الكلمات « أعظم من بروتوس » .
ولقد رغب ذلك الشاب في الموت رغبة صادقة ، فحمل على الجمعية واليعقوبيين
معاً حملات صادقة كانت نهايتها القبض عليه واتهامه . وفي الرابع عشر في شهر
سبتمبر سنة ١٧٩٣ ناله من الجيليوتين مانال شارلوت .

ويظهر أن قصة آدم لوكس تحقق ما قال المؤرخ ميشليه من أن دم شارلوت
قد أوجد ديناً . غير أن ما يصح أن يقال في شارلوت من هذه الوجهة يصح أن
يقال مثله في مارا . فإن اتباعه كانوا مستهينين في تقديسه استماتة اتباع شارلوت .
من تقديسها . بل أنهم كانوا أكثر عدداً . وكان من بينهم زرافات من النساء
في باريس والاقليم . وعلى الاخص النساء المنتميات الى الاندية الثورية .

لان مارا قد كان قد خص من بين كل زعماء الثورة باستعداد خاص في استخدام النساء . ومن مهيئات القدر العجيبة ان مارا كان قد اقترح أن يسلم عضوات الناديين الثوري والجمهوري بالخنجر : وكان نساء نادى « ماكون » يسمين أنفسهن « نساء مارا المقدسات » كذلك اشتراك في مظاهرات ١٦ ، ١٨ ، ٢٨ يوليه الآلاف المؤلفة من النساء . وكانت قد أقيمت تلك المظاهرات الفخمة حباً في أحياء ذكرى فريسة شارلوت . ويفخر عضوات النادى الثوري والنادى الجمهورى ، بأنهن أول من بثن فكرة إقامة مسلة تذكارا لمارا في ميدان الريونيون وهو الآن ميدان « كاروسيل » . والرجال إن انكروا على النساء ذلك الفخر فان مخلفات النادى اليعقوبى ، تدل على ان « بولين ليو » وكانت إذ ذاك رئيسة نادى « سان أبوستاس » قادت في ١٥ اغسطس مظاهرة عظمى . وكان غرضها ان تواجه زعماء اليعقوبيين لتسألهم الا كتاب لا إقامة مسلة تذكارا لمارا . ولكن حدث أنه لم يقيم من شئ سوى مسلة خشبية لم تعمر طويلا . وقبل أن يتمكن الداعون لمارا من إقامة تذكارت ثابت له ، كان تيار الافكار السياسى قد تحول وأخذ سمياً آخره فبعد ان كانت جثة مارا قد شرفت بان ترقد في البانتيون ، مقرر العطاء ، نبشت في قبرها والقيت بعيدا عنه .

إن احتفال

اغسطس الذى أقيم
لتدشين هذه المسلة
الخشبية كان احتفال
أليق به أن يقام لشئ
أعظم من هذا . وقد
لعب فيه النساء دورا
ذا شأن عظيم ، اذ
خرجن في مظاهرة
رهيبه من نادى
« سان أبوستاس »



الى ساحة الموت

عربة تحمل المحكوم عليهم بالموت في الثورة الفرنسية
الى ساحة الاعدام ومن بينهم مدام رولان

وهمشين وراء ذلك الحوض التاريخى الذى كان ينطش فيه مارا ، وحملى فوق

منصة عالية مخلفات نبيهم مارا ، كرسيه ومائدة كتابته وقلمه ودواته . وهؤلاء النسوة بذاتهن كن قد تبعن من قبل شارلوت يشيعنها بالاعنات وهي ذاهبة الى الجليوتين . وكن يعتقدن ، كما اعتقد غيرهن ، وكما اعتقدت مدام « أوامب دى غوج » ، ولو أنها لم تكن من نصيرات مارا ، أن قاتلته وحش ضار ، مجرد عن الانسانية ، جدير بكل صفات السقوط والاسفاف ، حتى لقد أنكرت الصحافة المناصرة لمارا على شارلوت جاهلها ، فوصفتها بأنها شبح مخيف يعلو وجهه نفاط ظاهر إن فعلة شارلوت ، لبعدها عن واجبات النساء ، قد أضعفت القضية النسوية في فرنسا ، على الرغم من أنها كانت قد أخذت في الاضمحلال . كذلك لم تكن فعالتها باطل تأثيرا في تحطيم الحزب السياسى الذى كانت تنتمى اليه ، منها في اضعاف القضية النسوية : لذلك صاح « جيروندين فرنيو » من أعماق سجنه قائلا : « إنها حطمتنا . غير أنها عامتنا الموت كيف يكون » .

اسماعيل مظهر

مدى الجهل

أصبحوا من جهلهم أضحوكة ودليل الجهل بل آى العبر
لا يرون النهضة اليوم سوى زلة للناس قد لا تغفر
والذى يرجو انحراف الناس عن عادة الاجداد... هذا قد كفر...،

نور التجديد

أيها العابر أمواج الدجى انت سرفى فؤاد الليل بات
خفف الحزن عن النفس بما يبعث الافق لنا من نظرات
سوف يأتى البدر ، يمحو نوره ظلمات الليل . فانظر : فهو آت...
هكذا التجديد يمحو كل ما خلف الجهل ، وعصر الظلمات
القاهرة . حسن كامل الصيرفى

تاريخ النضال

بين العلم والدين

مراجعة وتلخيص عن الاستاذ درابر Draper

— ٣ —

توطدت نظرية دوران الارض رغم براهين الكنيسة الحمراء وجرفت موجة العلم آراء عتيقة مثل فكرة عمر الارض التي اختلف تقدير الاوائل فيها. اذ يؤخذ من النسخة السامرية للتوراة أنه انقضى بين الخليفة والطوفان ١٣٧٠ سنة في حين تقول النسخة المتداولة أن المدة ١٦٥٦ وتقول ثالثة انها ٢١٥٦ ولكن بالرغم من هذا لا يزال الاكثيرون يقدرّون عمر الارض بين ست وسبع آلاف سنة دون أن يقبلوا جدلاً في ذلك. في حين أن لديهم ١٣٢ رأياً مختلفاً في عام مولد المسيح وكذلك يقولون ان حدوث الطوفان قد أزداد السنة خمسة أيام وست ساعات حتى يخفوا الخطأ القديم القائل بأن السنة ٣٦٠ يوماً. ومن طرائف آرائهم فكرة توزيع نوح العالم على أبنائه اذ أقطع يافث أوروبا وسام آسيا وحام افريقية ولكنه لم يقطع أميريكاً لأحد ويغاب على الظن أن هذه القارة قد خاقت فيما بعد وليس في الايام الستة أو ربما تكون من نصيب يافث الذي اكتشفها عن يد كولومبس وسهي عن ذكرها .

وكان سام كثير النسل حتى ان أعقابهم ملأوا آسيا خلال سبعين سنة ولما ضاقت بهم نظلموا لاكتشاف المريح ولولا لطف الله بنا فببلب ألسنتهم لكانوا سيقونا الى اكتشاف ذلك الكوكب

ولم يتفق علماء الكنيسة على اللغة التي تكلمها الناس قبل كارثة بابل ، فأدعى البعض أنهم كانوا يتلفظون بأسماء ، ويقول البعض الآخر بل تكلموا بالمقاطع وكانوا قد نسوا أن آدم كلم الرب حرفاً وفعلاً واسماً — هكذا ذكر في الكتاب المقدس — وكلمت الحية حواء وهذه كلمت آدم.

ويجب أن لا ننسى طول أعمار الناس ثم نقصها الى النصف وأخيراً صارت كما هي عليه الآن. ويبرر الفلاسفة — لأنه كان في رجال الدين فلاسفة — تخبطهم

هذا قائلين ان الطوفان المسكين قد أضعف الاعصاب والدم — كما أزد أيام السنة —
فهبط متوسط الحياة ، ولكن يظهر أن هذا الرأي لم يقنع البعض فقالوا ان
المقصود من السنين الشهر القمري ولكن غاب عن بال هؤلاء أيضاً أننا لو اتبعنا
القسمة على اثني عشر لحدث ما هو أشر مما نريد إخفاءه وينتج من هذا أنهم كانوا يتزوجون
ويلدون قديماً وهم دون الخمس سنوات

وفي فصله الثامن يقول أنه توجد أديان بقدر ما توجد عقول مفكرة بل الحقيقة
أكثر من ذلك بكثير لان دين المفكر يتحول عن أصله كل سنة بل كل شهر
بل في مدة أقصر ولكن لم يخطر للمسيحيين هذا بل اعتقدوا عكسه فاوغلوا
في ضلالهم واضطهدوا الناس واستعملوا كل الوسائط لاجبارهم على الاعتراف بين
آن وآخر . وكان رجال ديوان التفتيش يصدرون حكم الموت القطيع على الرجل استناداً
على أقوال تتفوه بها السنة أعز الناس اليه وأبرهم به وكان يكتفي الديوان بأقل الشبهات
لينشب مخالبه بتوحش في الناس وعلى الرغم من كل هذه التدابير الوافية ازدادت
الطريقة انتشاراً عند ما ثبت لهم سخف التعاليم التي كانت تبرهن على صحتها الكنيسة
بآلات العذاب والموت وليس هذا فقط بل ان الدنيا التي كان يقترفها الا كايروس قد
عملت في نشر الاحاد . كيف لا وكان الغفران يباع جهاراً وكان القسس يطوفون
باشياء يسمونها مقدسة في الطرقات والويل لمن لا يتبرك بها بعد أن يدفع الضريبة
المفروضة في مثل هذه الظروف

وقام فيمن قام محتجاً على هذا الاذلال مارتن لوثر فخرمه البابا ولكن لم يجده
الجرمان فتيلاً فقام زوينجلي وقام كالفن وغيرها محتجين على هذه الفظائع وكان
اتصالهم بالدين لم يفسح للتسامح مكاناً في قلوبهم فاخذوا بدورهم يضطهدون مخالفينهم
فأحرق كلفن سرفيتوس بعد أن عذبه عذاباً أليماً . ولا يعود ضعف همة البروتستانت
عن الكاثوليك في الارهاق والاضطهاد عن تعفف أو عن انسانية بل عن قلة عددهم
وجاوتهم إلى السطوة

وضربت الكنيسة الضريبة القاضية يوم اختراع فن الطباعة وعبثاً حاول القساوسة
منع الناس عن ورود العرفان والتفكير لانفسهم ويصح أن يعد عهد اختراع
الطباعة مبدأ تفكك أوصال الكنيسة وابتداء قيام فكرة الوطنية في أوروبا وهكذا
قرأ الناس غاليليو وقرأوا نيوتن « فسرقت من الآلهة أجمل صفاتها لتخلع على الطبيعة »

وأخذ العلم يهزأ بالطوفان وقصة آدم وحواء فتقهقرت الكنيسة وحاولت أن توفق بين العلم والدين حتى لقد ترك رجال الكهنوت أنفسهم فريسة للشك وتفتحت أعينهم وشحذت قرائنهم ففهموا أنه لا يمكن لموسى أن يكتب بيده كيفية موته ودفنه وما فعله بنو إسرائيل من بعده فقالوا إن التوراة قد خطها قلم عزرا ولكن بوحى من عند الله وقد كتب صورة طبق الاصل للاصل الذى حرق وقت الفتح البابلي وقضى أربعين يوماً يقيد ما أملى عليه ولكن فاتهم أنه يستنتجوا من قراءة التوراة انها كتبت في غير مصر لأن البحر المتوسط لا يقع غربى صحراء التية بل في شمالها فاذا قيل بأن البحر كان غربا وجب أن يكون مكان الكتابة في الجهة الشرقية من البحر

ويعتقد المؤلف أن قصص الخليقة والطوفان وسفين نوح ليست إلا أساطير تناقلها أفراد إحدى القبائل خلفاً عن سلف ثم كتبها عزرا ليحفظ لقبيلته السامية ذكرى بين آلاف من مثيلاتها من القبائل

ويدخل المؤلف في بحث القانون الألهى والقانون الوضعى فيقول إن رجال الدين من القائلين بوجوب الخضوع للرأى الاول وهم في ذلك ناقلون عن الرومان الذين كانوا يستخيرون الآلهة في أى القوانين يجب تطبيقها وكان القسس في صدر المسيحية يعتقدون أن في امكانهم جاب الخير ومنع الشر

وكان قدماء المسيحيين ينظرون في الحوادث الطبيعية كمفاجآت تدعو إلى اندهاش الناس ولكنهم الفوها وأصبحوا يتوقعون حدوثها وهكذا نشأت فكرة القانون الطبيعى وعلى أثر ذلك استكشف Kepler قانون دوران السيارات وبينما كان البابا يحاول وأد رأيه قام دا فنشى da Vinci ونشر آراءه في الميكانيكيات وغاليليو آراءه في الديناميكا ونيوتن ففكرة أن العالم الفلكى خاضع لاسس رياضية. فعجزت البابوية من المقاومة حتى أن بعض الكنائس سلمت بأن النشوء وليس الخلق هو أصل الوجود ويعزو المؤلف اضطهاد الكاثوليك للبروتستانت إلى أن الاخيرين سلموا بالخضوع للقانون الوضعى واستخفوا بالمعجزات

ثم ينتقل الاستاذ ويقول إن تقدم أوروبا منذ بداءة القرن الرابع الى القرن السادس عشر للمسيح يعود إلى المسيحية وفي هذه المدة لم تتقدم الاخلاق وحل بالخراب في العاصمة الزاهرة — روما — ولكن والحق يقال لم يحتكر البابوات لانفسهم

عمالية التخريب بل ساعدت عليه العصابات التي أغارت على روما خلال مائة واربعين سنة فهدمت المعابد لتبنى بانقاضها الكنائس ولقد اسلمت روما البابوية لروما الادبية فبذلت الجهد لمحوها ومن دواعي عدم الاستقرار وعدم استتاب الأمن انتخاب البابا من المسنين فبمجرد انتخابه كان يشعر بسطوة النشيطين من حاشيته فيندفع إلى ملاذهم ويندفعون إلى توطيد نفوذهم بتوطيد نفوذه لان معنى سقوط البابا لم يكن أقل من ذهاب نفوذ المتسلطين عليه ليحل محله نفوذ متسلطين جدد وكان النضال مستمرا بين هؤلاء وهؤلاء وكلهم يتخذ الدين وسيلة لارهاق الناس وفقط عندما احتاجت البابوية إلى ماتلهم الناس به عن ورود العلم أخذت في تشجيع الفن ولكن الفن لا يقوى على بث الحياة في الامم. وهكذا كانت روما ومن تظله روما ضعيفة متأخرة وزاد الطين بلة بان قل النسل في منطقة النفوذ البابوي حين كان في ازدياد مستمر في حمى النظام الاقطاعي وتعود قلة النسل في روما الى تفشى الرهبة بدرجة كبيرة فازداد الفسق ازدياداً اضطرت معه انجائرا أن تمنع تشييد الاديرة عندما اتضح لها أن الرهبان قد ضحوا بشرف مايقرب من مائة ألف عذراء على مذبح شهواتهم وأخفوا ثمار الجريمة تحت الثرى. وكذلك عدم استقرار الامن زهد الناس في تحمل المسؤولية اذ كانوا يشكون في إمكان إقامة نظام عائلي ولما ذهب الناس الى الحروب الصليبية قضوا سنين عديدة وهم غير متزوجين أو في حكم غير متزوجين

وأثر انتشار الاديرة مع الحملات الصليبية في حرمان البلاد من الانتفاع بقوة الشبان الذين كانوا يلتجئون لارهبنة حيث يجدون مجالا للتهب والساب فكان من أثر ذلك تتابع المجاعات وما ينتج عنها وكان المستوى الحيوى منخفضاً جداً حتى ان الدود كان يسير على جسد رئيس أساقفة كنتربرى وعلى جسد آبا كيت الشهير. وفي عام ١٠٣٠ كان لحم الناس يطهى ويباع علناً في أسواق انجائرا وكان السعيد هو من يحصل على أكلة واحدة منه في الاسبوع

ولأن الأديرة كانت منتشرة كانت الغابات والاحراش من الازوميات فلم تعبث الطرق بل بالعكس أتوا على ما تركه الرومان تخريباً ودفنوا معالم القناطر العجيبة واكتفوا بالانتقال على عربات تجرها الثيران ونتج عن منع الناس عن ارتشاف العلم انتشار الخرافات والاعتقاد بالمعجزات

فكانت الصلوات الحارة دواء الأمراض وكان الابتهاال يقوم مقام البلديات في
تنظيف الطرق من الاوساخ المسببة للأمراض المعدية

وأخطأ مذهب هالي عام ١٤٥٦ فأطل بوجهه على الارض فخرمه البابا ولعنه
وحكم عليه بالطرد من السماء ورغماً عن عناد المذهب بضعة أيام أثرت فيه اللعنة
وولى ملبياً أمر البابا وهكذا اعتقد الناس أن البابا قد فعل شيئاً

عاد رفاق كولومبس ومعهم مرض الزهري من جزائر الهند لأول مرة إلى
أوروبا فتنازل البابا وقبله هدية لجسده المقدس. وهكذا فعل رجال الدين رغبة
منهم في إخفاء جرمهم فادعوا أنه يلتقط من الهواء وطلبوا من الناس الصلاة ليزول
ومن الخرافات التي انتشرت وقتذاك تلك الزجافات التي أتى بها فرسان
الصليبيين من الارض المقدسة وادعوا أنهم جلبوا ما تحويه بأيديهم من ثدي
العذراء وفعلاً باعوها بأثمان عالية وقد حصل أحد الأديرة على أصبع من
أصابع الروح القدس فجمع من مشاهديه مالا كثيراً

وكانت كل كنيسة مستقلة داخلياً في إدارتها وفي اعتقاداتها التي لا تتخالف
مع إرادات البابا وكان كل خلاف يحل في روما ولكن ظهرت خباة في بلاد الغال
سنة ٨٤٥ مائة إرادة بابوية نشأت عنها شوشرة اضطرت البابا الى الاشراف الفعلي على
جميع الكنائس وأعطى لرجال الكهنوت بعدها حق الحرمان (حتى حرمان الملوك
أنفسهم) وجعل الامراء والملوك أتباعاً للبابا الذي عدت إرادته في مقام الكتب المنزلة
ونتج عن شفاء الامبراطور قسطنطين بفعل تضرعات البابا أن أقطعه أرضاً
واسعة في ايطاليا ومشى في ركابه مسافة طويلة تيمناً وشكراً فكانت هذه سابقة
أثبتت سيادة البابا على الملوك

وازدادت فظائم الكنيسة الى حد لا يحتمل بفضل الاكايوس الايطالي الذي
أمعن في الناس سلباً وعذاباً وتحكماً حتى لقد أجبرهم في منتصف القرن الثاني عشر
على القول بمساواة البابا لابن الله وابن الأب الاقدس فوق القانون فهو مالك الارض
ومن عليها وبعد ما كان البابوات يدعون خلافتهم لبطرس قالوا أنهم خلفاء المسيح
وكان نصيب المانيا من هذه الكوارث كبيراً أولاً لقربها من روما وثانياً
لغناء أرضها .

وكثرت الوظائف الدينية الغالية كثرة جلبت للبابا أموالاً كثيرة حتى أن

ليو العاشر أنشأ ٢١٥٠ وظيفة باعها بأثمان عالية من جراء تهافت الناس عليها طمعاً في الربح ولكن مركز المطارنة أخذ في الانحطاط فأصبحوا موظفين لدى البابا يقسمون بطبائعه السياسة كما يقسمون بطبائعه الدينية

واشتغل الفاتيكان بالربا لدرجة أصبح معها البطارقة والامراء تحت رحمته وكان جزاء الماثل في دفع الربا والمستحق الحرمان حتى أنه يقال إن نصف العالم للمسيحي كان محروماً سنة ١٣٢٧

وكان يتم تعيين البابا باتفاق رجال الدين ولكن اقتصر الانتخاب على الكرادلة وحدهم ابتداء من سنة ١٥٠٩ ونتجت عن هذا مشادة استمرت قرنين بين الكرادلة والبابوات لأن الأولين كانوا يأخذون المهود على الآخرين قبل تعيينهم. ولكن قلما اهتم الآخرون بتنفيذ تعهداتهم ولم يتفق الكرادلة على شخص للبابوية. فظل الكرسي خالياً بضع سنين

وحتى عندما انتقلت البابوية الى فرنسا لم يتغير غير جنسية الأشخاص فأصبحوا فرنسيون بدلاً من ايطاليين وفي ذاك الوقت اكتشف منجم «المطهر» Purgatory وهكذا وردت لسوق بضاعة جديدة تريح الكليروس أموالاً

وكانت البابوية تقسم أملاك الهراطقة التي تصادرها رجال التفتيش بعد حرمان الورثة منها مناصفة ولكن حدث أن وجد في عالم الكشاكشة بابا وان أحدهما فرنسي والآخر ايطالي فهبط سعر الغفران والحرمان لما داخل الناس من الشك في أيهما الحقيقي فقل دخل رجال الدين وارتأوا العمل لتوحيد الصفوف فجمعوا مجلساً عاماً منعوا دخوله على الألمان وقرروا فيه أن البابا صاحب السلطة التنفيذية وادعوا أن اللاتينية لغة مقدسة وأوجبوا استعمالها دون غيرها من اللغات الموضعية وهكذا تم الانتصار لاطاليا على فرنسا

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى أمريكا فيقول أن نزوح الأوروبيين إليها كان اما لصيد الحيتان أو هروبا من الاضطهادات أو بحثاً على النهر الذي يديم الشباب وقد استنتجوا من مشاهدة الهنود وجود أراض صالحة للاستثمار فدفعهم ذلك الى التوغل في المجاهل وتوافد المهاجرون فازدادت التجارة والزراعة وانتشرت المدارس وأصبح في الولايات المتحدة خطوط حديدية تزيد في طولها عن مجموع الخطوط الأوروبية. اذن فهضة المدنية الحالية بدأت تزدهر في أمريكا قبل أوروبا

وكان المال يتسرب إلى روما من أنحاء أوروبا فمنع فيليب ملك فرنسا تصدير الذهب والفضة من بلاده إلا بأمر منه وضرب الضرائب على أملاك الرهبان فخرمه البابا فما كان من الملك إلا أن اتهم البابا علناً بالهرطقة وطلب محاكمته ولم ينتظر بل اختطفه وعامله معاملة قاسية فمات وخلفه آخر لم يلبث أن مات مسووماً فلم يجد الكرادلة بداً من الاتفاق مع الملك وهكذا انتخب كلنت الخامس الأفرنسي ليكون باباً ونزح بكرسيه إلى فرنسا حيث أقامت البابوية سبعين سنة تنفست خلالها إيطاليا الصعداء وتمكنت المراكز التجارية الشمالية فيها من الاتصال بالعلم

ومما أسقط من هيبة البابوية وقوع الحرب الصليبية إذ وقف المحاربون على أن أعداءهم ليسوا كما صورتهم الكنيسة همجاً جهالاً بل بالعكس اقتبسوا منهم معنى العدل والشم

وانتقلت فكرة الفروسية عن العرب إلى جنوب فرنسا ودخلت معها كلمة الشرف واقتبس الفرنسيون عن العرب أيضاً « الحذاء » الذي لم يلبث حتى انتقل من النسب والفزل إلى الشكوى والتذمر من الحكم البابوي

وعبثاً حاول البابا عندما رجع إلى روما أن يقف تيار التقدم وأصبحت أوروبا كلها تستنكف فكرة ترك جماعة من الأشرار يعيشون فيها فساداً باسم الله وجمع رجال الدين مجمعان في كنستانس وفي باسل لرتق الفتق ولكنهما انفضا دون أن يفعلوا شيئاً وظل النفوذ الإيطالي على ما كان عليه

وضربت الطباعة الكنيسة ضربة قاضية لم تنفع معها وسائل الوقاية من مراقبة وحرمان

وعرف المحاربون الصليبيون أنهم لم يحاربوا الله بل لأسيادهم من الأشرار والكرادلة فلما اكتشفت أميركانزح الناس إليها وكلهم معول على أن يعمل لحسابه الخاص وكلهم كاره لنظام الحكومة البابوية وهكذا بدأت أوروبا تفهم أن الإنسان سيد نفسه وأنه يجب أن يعمل لذاته وفي وسط هذا الانتقال قام لوثر قومته فهزأت به الكنيسة أولاً ولكنها لم تلبث أن رأت حوله من يلبون دعوته وسيوفهم مشرعة بأيديهم فرمته الكنيسة بالفاظ غاية في البذاءة مثل ادعائها أنه ابن زنا وأنه عرييد

وحين أحس البروتستانت أن يد روما أقصر من أن تناههم بمعنوا في الاختلاف.

واقتراف الفطائع. وكان هذا نتيجة لازمة للانتقال ولكن همهم كان متجهاً نحو تنقية المسيحية من التعاليم الوثنية التي زجها قسطنطين ومن خلفه فيها وودعوا الى الرجوع بالمسيحية الى عهد الفطري فمنعوا عبادة العذراء والتمسح بالقديسين وقد بلغ بهم الحال أن طائفة منهم قالت إن أمريم تزوجت وولدت عدة أطفال كان أحدهم المسيح

وفي هذا الوقت كان ضغط العرب شديداً فنفذت الى اوروبا تعاليم ارسطو مهذبة بفلسفة ابن رشد فانشئت أول اكاديمية عام ١٣٤٥ في طولوز وكانت تهتم بالآداب وأنشئت واحدة أخرى في نابولي كانت تبحث في العلوم وهذه أغلقت قسراً ومن الغريب أنه كان يحتم على العضو أن يعترف بأنه ملحد قبل قبوله فيها حتى يتيسر له البحث دون تمحيض

وتسبب عن انتشار العلم طرح المعتقدات جانباً إذا لم تقبل عقلياً والعمل لتفهم الاشياء فتوصلوا الى الاختراعات والاكتشافات التي أخذت تتكاثر مع الزمن وتنتج عنها ثورة اجتماعية. ولقد قضت هذه الثورة على نظام الاستعباد فقام الشمال بحارب الجنوب في أمريكا لمنع الرق اذ أن تلك البلاد مع روسيا كانتا مزرعتين يربى فيهما الارقاء فامتناع الرق يعود الى المخترعات والمكتشفات وليس الى عاطفة نبيلة ولم تقم للكنيسة بعد ذلك قائمة جدية إلا انها شرعت دفعتين تعمل لكثاكة

المانيا وذلك في حربى بروسيا — النمسا وبروسيا — فرنسا، ولكنها أخفقت وحرّم البابا بعد ذلك أحد المدرسين الالمان فتساءل الناس عمن يسود الامم أحكومتها أم الكنيسة وخفقت هذه الحادثة من غلواء الكهنوت ولكن ليس معنى هذا أن اوروبا كانت قد تحررت من الكنيسة فهي لا تزال خاضعة لسلطتين سلطة الدين وسلطة الدنيا

عمر عنایت

القوة المعنوية وآثارها في الحروب

الجيش كائن حساس . وليس آلة صماء أو أداة لحياة فيها . كما انه ليس عدداً من قطع الشطرنج تحركها أيدينا للامام وللخلف وفق مشيئتنا ثم ينتهي الامر بان نقول لعدونا (شك — مات)

وليس ما يتسلح به الجيش من مدفع وبندقية ومزراق هي التي لها الامر الحاسم في الحرب . وانما الامر للرجل الواقف خلف المدفع ، ليس للانسان الحامل للبندقية وللشخص القابض على المزراق . وليس الفوز دائماً للأسلحة الحديثة والحصون المتينة والأهب الوفيرة والعدد الكثيرة وانما النصر يأتي به الرجال الذين يستخدمون هذه الآلات ويستعملون تلك المعدات .

يتقدم العلم ويتطور الزمن . وتظهر آلات وتندثر آلات وتبديل طرق الحرب وسبله . وتتحول مظاهره وعلمه . ومع هذا كله لم يتغير الموت ولم يتحسن ولم تتطور الجراح ولم نتبدل ولا تزال الآلام التي كانت بالامس هي التي تراها اليوم وستبقى إلى آخر الدهر ذات تأثير ثابت في طبيعة الانسان على الرغم من تباين العصور وتقدم الحروب

وما دام الانسان بمشاعره وعواطفه وعاداته وغرائزه وأفكاره وعقائده العنصر الفعال في الجيش وفي الحرب فقد كان من الاهمية باعلام مكان أن نكون على معرفة دقيقة بالطبيعة البشرية . وان ندرس ما بها من ضعف وقوة ومن ألم ولذة ومن قسوة ورحمة ومن جبن وبسالة ومن فتور وحماسة الخ . فان هذه الاشياء لديها تلك القوة الخفية الساحرة التي لها خطرها في سير الحروب قديماً وحديثاً ومستقبلاً . وكثيراً ما حولت النصر الى هزيمة وانقلبت بالفشل الى ظفر وكثيراً ماعاونت نابليون في فتحه وظهرت خالداً في غزوه وآزرت واشنطون في حربه وهي نفسها التي خذلت بازين في حرب السبعين وكروباتكين في حربه مع اليابانيين وهي أيضاً التي خذلت لودندورف وهندبرج من القواد المعاصرين

هذه الروح الادبية أو كما يدعونها القوة المعنوية هي موضوع بحثنا اليوم وأظنني لست في حاجة الى تعريفها اللفظي فمعلوم ان كل ما يحدث أثراً جليلاً

كان أو ضئيلاً يدعى قوة ، ومعنوية ، أى مجردة عن المادة — وبعبارة أوضح ليس في مقدورنا أن نراها أو نلمسها وأن كنا نلمح أثرها ونشعر بها ولعلها أقرب شيء في التعريف إلى الكهرباء . لا ندرك كنهها ولا كنهنا نشهد مظاهرها من قوة وضوء وحرارة .

ولا بد لنا من ذكر لمحة تاريخية قبل الشروع في التفصيل فقد أخذت القوة المعنوية مظاهر مختلفة وألواناً متعددة خلال عصور التاريخ ومع هذا فلم يتغير جوهرها . فكان المحاربون من الانصار والمهاجرين في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ومن المسلمين العامري القلب بالايمن في العصور التي بعده يؤمنون بان قوام الاسلام الصحيح هو بذل النفس في سبيل نصرته واعلاء كلمته ويشعرون بان الحياة قليلة الوزن هيينة وأن الدنيا لا تعدل في متاعها وآلامها ذرة من نعيم الآخرة وكان لهم من آيات القرآن الكريم وتعاليم الاسلام القويمة قوة أغنت عن وفرة العدد وكثرة العدد فاخترقت صفوف الائم واختطت ديارها دون أن تعوقها أبراج الفرس أو تصدها قلاع الرومان أو يقف في طريقها إلى بلاد الاسبان بحر أو مسلك وعر . قال الله تعالى . (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقال أيضاً . (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

يولد الانسان مزوداً بغرائز كثيرة وميول مختلفة واستعدادات متباينة لعلها مال الطفل الذي تزوده به الطبيعة عند ما تلقي به غريباً في هذا العالم .. والحيوان يولد كذلك وله غرائز خاصة فالتقط يولد وبه عداوة موروثة للفأر . والطيور تبني أعشاشها . والطفل يتناول كل ما تقع عليه يده ويغضب ويخاف الى غير ذلك . كل هذا عرفه المولود بدون تعلم أو خبرة سابقة وإنما ولد معه وقد يكون من النافع ذكر بعض هذه الغرائز التي تهتم موضوعنا

غريزة محبة الحياة :

تجعل كل كائن حي يستمسك بهامها شتت ظروفه وليس أسرع منه في الدفاع عنها إذا أخطق بها خطر ولقد صدق المتنبي حيث قال ..

الاكلنا يبغي الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهما بها صبياً
لخب الجبان النفس أورده التقي وحب الشجاع النفس أورده الحرباً

غريزة الخوف :

هي ذلك الانفعال النفساني الذي يصحب غريزة الهروب من الاخطار وهو أول ما يبدو من الغرائز في الاطفال . وهذه الغريزة من أضرها بنظم الجندية لما تلقيه في روع الجندي من الجبن ورذيلة التردد

غريزة المقاتلة :

هي انفعال شديد للفضب يشوبه الحقد ولقد كان للمقاتلة أثر اجتماعي كبير في نشوء المجتمعات تدعو الافراد والقبائل الى الكفاح والاستماتة في الحرب لاحقر الاسباب . ولكن أثر ذلك يبدو في الجماعات أكثر منه في الافراد ولقد تثير حفيظة الامة سبب ما فتندفع طالبة غسل الاهانة بالدم (كالامة الفرنسية في الحرب السبعينية)

والغرائز لا يمكن محوها ولكن التريئة والبيئة تهذبها وتخضع شوكتها فمن الميسور مثلاً أن ننأهض غريزة الخوف بأن نهملها ونشجع غريزة طيبة ضدها مثل المقاتلة

ولنختصر ونقول . يكتسب الشعب عاداته الموروثة من بعض الغرائز الانسانية التي ولدت مع أفرادهم يوماً ما ، وعاشت في بيئته زمناً ما وهذبته التربية شيئاً ما فتكون له قوة معنوية لها أثر أي أثر وخطر ليس بعده خطر في تسيير الحروب

اما القوة المعنوية التي تكتسب في المنزل والمدرسة والبيئة فلا تقل خطراً عن سابقتها فالإنسان بطبيعته مقلد . تلك غريزة متأصلة فيه . فالطفل يتعلم اللغة بتقليد أبويه . فإذا ما شب طبع على دين والديه . ورسخ في نفسه ما أخذ عنهما من عقائد وما اقتبس من عادات حتى إذا ذهب الى المدرسة فإن التربية والتعليم لها أثر خاص في تثقيف عقله وتنمية خلقه . فإذا ما اتصل بالبيئة اكتسب منها عادات وتأثر بها تأثيراً خاصاً ولعل ابلغ الامثال على أثر تلك القوة المكتسبة ما كانت الامم الفرنسية تلقنه ولدها من دروس الوطنية بعد الحرب السبعينية وما كان يظهر في البيئة الفرنسية من أسف على ضياع الازراس واللورين . فكان ينمو مع الطفل الفرنسي التطلع الى استعادتها والامل القوي في استردادها فلما ان جاء صيف سنة ١٩١٤ كان هؤلاء الاطفال هم اولئك الرجال الذين حاربوا

باستبسال في سبيل استرداد ما انتزع من بلادهم وما اقتطع من حدودهم .
 منذ نصف قرن فوجيء العالم مرة واحدة بيقظة اليابان ، وسمع لأول مرة
 ببأس هذا الشعب الذي نهض من خمول ، وانتبه من سبات . وانما الفضل
 كان للام اليابانية التي عملت على غرس روح الوطنية وقد كان للتعالم الدينية الاخرى
 نفس هذا الاثر وتلك القوة . ففي الحروب الصليبية كان الصليبيون يذهبون من
 اقاصى المعمور غير مباليين بالمشقة وعناء السفر في سبيل الدفاع عن الملة مضحين
 بكل شىء في حروبهم ضد المسلمين

ودليل آخر على ذلك ظهر في الحرب الاهلية في انكلترا سنة ١٦٤٢ . كان
 الاشراف هم المدربون على استعمال السلاح حتى جاءهم كرومويل فخذ جيشاً من
 المزارعين ذوى النزعة الدينية المتطرفة لاعتقاده بان الحماس الدينى يغنى عن الخبرة
 العسكرية وبث في جنوده هؤلاء روح التثبث بالعقائد للقتال في نصره الله والدين
 وجعل سبيل الترقى الشجاعة والجرأة والكفاية . ثم قاد هذا الجيش لقتال
 هؤلاء الاشراف المدربين ذوى الخبرة العسكرية العالية وانتصر عليهم انتصاراً
 مبيناً حتى صاروا يطلقون على هذا الجيش (ذوى القلوب الحديدية) ولعل في
 هذه الامثال السالفة صوراً واضحة عن القوة المعنوية المرتبطة بالاديان وما لها
 من أثر رائع وفعل حاسم في الحروب

وصورة أخرى للقوة المعنوية في حالتها الدنيا ظهرت مع الجنود المرتزة
 الذين كانوا يؤجرون للقتال هي القوة المعنوية في احط مظاهرها فلما توقع ممن
 يذهب لبيع جلده في ميدان القتال ان يحارب مستميتاً ولا ممن يقاتل لاشباع
 بطنه واطفاء شهوته أن يثبت أمام الخطر ولعل أول من الشأ جيوشاً وطنية حقه
 مشربة بروح الدفاع عن أرض الاجداد مزودة بأقوم الفضائل العسكرية هو
 فردريك الاكبر

ومرت السنون واذا بالثورة الفرنسية تفجأ أوروبا واذا بجنودها الرعاع
 القليلي الخبرة المشوشى النظام يهزمون على قلة عددهم ورداءة تسليحهم وسوء
 نظامهم جيوش النمسا في موقعة (فالمي) وكان جوتة شاعر الالمان وفليسوفهم
 حاضراً في هذا اليوم العظيم فقال كلمته المشهورة الخالدة (في هذا اليوم وفي هذا
 المكان بزغ فجر عصر جديد)

ولعل أقرب ما ترمى اليه جملة الشعارجوته هو استيقاظ روح جديدة في صدور هؤلاء الجنود تجلت في استماتهم وتفانيهم في الدفاع عن بلادهم وليست هذه الروح سوى شكل جديد للقوة المعنوية الصادرة عن الروح الوطنية والنعرة القومية ولا نترسل طويلا في الشرح والتعليق ولندخل في الموضوع ولنبدأ بتقسيم القوى المعنوية الى ثلاثة انواع

١ - ما هو غريزي موروث لا يمكن لشيء ما اخماده أو اخفاؤه مثل الشعب الفرنسي الذي له من صفاته الموروثة ، المرح ، والحمية ، وعزة النفس ، وحب العظمة والمجد

والشعب الانكليزي يمتاز بما ورثه من المحافظة على تقاليده ، والجمود لدى المخاطر وروح الواجب

الشعب المصري له من ثرات اجداده . كرم وذكاء ومحافظة على القديم وصبر على المكاره

٢ - ما يكتسب من البيئة والمدرسة والعائلة ويتلخص في حب الوطن والشعور القومي والديني

٣ - ما يكتسب من الخدمة العسكرية ويتلخص في النظام والطاعة وقوة المقاومة وروح السلاح

فالقومية وروح الواجب في ابناء الشمس المشرقة كانت ضعيفة الى سنة ١٩٠٤ واذا بذلك الشعب القليل العدد يتحدى ماردا أوروبا المريب على عدده الضخم وملكه الفخم واذا بالحرب تبدي واذا بها تنتهي واذا باليابان منتصرة والروس منهزمة منكسرة والعالم في دهشة والناس معجبة .

من هذا كله يمكننا أن نستنتج انه اذا عني بتربية الطفل على الاعتقاد بالله والاخلاص للملك وحب الوطن استحبال هذا مع الايام الى عقيدة ثابتة وايمان قوى . والرجل المؤمن كما نعلم لا يعرف الخطر في سبيل الدفاع عن معتقده

أما القوة المعنوية المكتسبة من الخدمة العسكرية فلها أثر لا يستهان به . فمهما كان الملكيون الذين يتطوعون في زمن الحرب على خصال نبيلة ، ومهما كانوا متوقدين حماسا ملتهبين بالشعور الوطني العالي ، فان ذلك لن يعوض من نقص الروح العسكرية والنظام والطاعة وقوة المقاومة ، واحتمال المشاق التي لا يمكن

اكتسابها الا بطول الماران العسكرى الدقيق فالجرب تجربة شاقة ومحنة قاسية فضلا عن كونها منطقة اخطار وسلسلة للمتاعب المفضية للقوى المنهكة للاعصاب فاذا كان الجندى مدرباً بحيث لا يعرف المشقة ولا يعجزه التعب مشرباً بروح التضحية وروح الواجب فقد بلغ التعليم العسكرى غايته وانتهى الى اسنى درجته قال الكولونيل مود « بلغت المانيا كفايتها العالية وهى على وشك الاشتباك مع الفرنسيين فى الحرب السبعينية »

وكانت هذه الكفاية نتيجة للشعور بالواجب الذى غرس فى جندها فقد كان من السمو والقوة بحيث قيل ان ستة أسابيع أو أقل كافية لاختضاع الفرنسيين ولقد قسم كلاوزوفتر القوى المعنوية الرئيسية الى ما يأتى : —

(١) الفضيلة العسكرية للجيش

(٢) شعوره القومى

(٣) كفاية القائد

فالفضيلة العسكرية للجيش من أعظم وأهم القوى المعنوية فى الحرب. والجيش الذى يكون له حظ اكتسابها من معاركه العديدة المظفرة تحت قيادة ماهرة لا يمكن أن تزعه بعد ذلك عواصف الهزيمة أو سوء الحظ أو يضععه الاضطراب والشك الذى تستوجبه ظروف الحروب ولعل هذا لا يبدو واضحاً حد الكفاية فلنضرب مثلاً لذلك

اذا صورنا لانفسنا ماذا يكون تأثير اصدار أوامر لجيش ما ثم نقضها ثانية ثم اصدارها مرة أخرى واعطاء أوامر بالسير للامام ثم نعود فنرى امراً بالسير للخلف بدون أى غرض ظاهر وبدون أن نستشف سبباً واضحاً فاننا نؤكد لانفسنا أن هذه الاشياء أو بعبارة أخرى هذا التناقض الذى يؤثر فى أشد الجيوش نظاماً من البواعث التى تهز نشاط الجيش وتزعزع ثقته وتهدم من نظامه كما يقول

الفرنسيون *Ordre et contre ordre cest des-ordre*

ولكن ما أشد دهشتنا وأعظم اعجابنا حين يقص علينا التاريخ نبأ ما وقع فعلاً فى جيش الجنرال « وردر » سنة ١٨٧١ فقد أمر بالسير للامام ثم أمر بالسير للخلف وأعطى أوامر بالسير فى الليل ثم أمراً آخر بالوقوف ثم تلقى أوامر أخرى نقضت الاولى ولكن مع هذا كله لم يبد دليل ما على اختلال النظام فى جيشه

أو على وهن القوة المعنوية فيه. أليس ذلك معناه أن الجنود كانوا يشعرون أنهم في أيدٍ قادرة تعنى بهم وقيادة ماهرة تدير أمرهم على الرغم من هذا التناقض وذلك التردد ولذا لم يك ثمة من سبب يفقدون ثقتهم أو يثير قلقهم وإن كان هدم التعب وأضناهم الكلال

قال كلاوزوفتز : « الجيش الذي يثبت في تشكيلاته العادية تحت النيران الحامية والذي لا تزعزع المخاوف الكاذبة والذي يصمد في وجه الخطر الحقيقي والذي لا يزهيه الفخر بانتصاراته السابقة فينسى واجب الاحترام والطاعة والثقة في قواده حتى في أظلم ساعات الفشل وأسوأ أوقات المحنة . . الجيش الذي ينظر الى متاعبه كأنها وسيلة لفوزه وانتصاره وليست لعنة صبت على راياته وألويته والذي يتذكر أفراده أن تأدية الواجب والتمسك بالفضيلة مما يشرف سلاحهم ، هذا الجيش قد تشرب بالروح العسكرية حقاً »

أما الشعور القومي ذلك الشعور الذي يدع الآلاف من الناس يهبون كل ما يملكون من عزيز وغال حتى الحياة نفسها للغرض الوطني الاعظم فنراه واضحاً بارزاً في كل بلد تحركه عواطف وميول مشتركة ، وتجمعه مصالح مشتركة ، ولو اتسع امامنا مجال القول لضربنا لك الامثال العديدة على ذلك ولكن يكفي أن نذكر لك اليابان في حربها مع الروس والأتراك في نهضتها الاخيرة . ومما يحسن ذكره هنا ما قاله البرانس بسيمارك مؤسس الوحدة الالمانية حين جلس يوماً الى مائدة الطعام مع رفقة له فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لاصحابه : « كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئاً فشيئاً كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في أعماق قلوب الشعب »

أما كفاية القائد فتتجلى في ذكائه ومثاقفه وأخلاقه وقوة ارادته وثقته بنفسه واقدامه ومثابرتة ورصانته وفطنته وقدرته على احتمال الخيبة وصدمات القدر كائنة ما كانت. والتاريخ الحربى يعطيك أسماء الكثيرين من القواد النابغين الذين اتصفوا بهذه الصفات

وأظننى نسيت شيئاً ذا خطر ذلك هو نموذ القائد وقوة شخصيته . فأنت تدري كيف كان يقود الاسكندر وهانيبال وقيصر وخالد وطارق وفرديريك وناپليون الذى وصف قوة شخصية عدوه ولن ينجتوا بقوله . « ان وجود ناپليون

في المعركة هو بمثابة تقوية قدرها أربعين ألفاً) بل ذهب الناس الى أبعد من ذلك وقالوا ان خصومه من القواد كثيراً ما أخذهم الرعب وشملهم اليأس عند ذكر اسمه الرائع ولم ينج من تأثير نفوذه السحري الا اثنان هما بلوخر وولنجتون من هذا ندرك أن نفوذ القائد قوة لا تقف أمامها قوة أخرى فهي التي تبعث بالجنود الى الموت وهي التي تبث فيهم روح الاغترار والاستبسال وأحسبك تقدر مبلغ أثرها الخارق حين تذكر دروب نابليون من جزيرة إلبا وعودته الى فرنسا وهو أغزل وليس معه معين ، وأمامه جيوش الامة الفرنسية . أمامه القواد الذين أرسلوا للقبض عليه وحلفوا يميناً ليحضره في قفص من حديد، ولكن لم تلك الا نظرة منه أخضعهم وهم صاغرون . ثم قادهم للموت وهم طائعون .

يقص علينا التاريخ العسكري يقول : بأن كل قائد كان يعتمد الى اثاره روح معنوية خاصة تتفق ومزايا الجنود التي يقودها أو بعبارة أوضح كان يعرف طريقة احضار الصور التي تجذبها ... فاما أن يناديها باسم المجد أو الفخار كما كان يفعل نابليون، أو باسم الواجب كما كان يفعل نلسون، أو باسم الملة والدين كما كان يخطب الامام علي، أو باسم الوطن كما يفعل مصطفى كمال

ولولا أنني أخشى الاطالة لذكرت لكم الامثال الكثيرة لكل منحي من مناحيها ولتقات لكم أقوال العظماء من القواد بالنص . ولكني اكتفي بذكر كلمتين لقائدين ظهرا في أمتين مختلفتين وفي عصرين متباعدين . ولكن وجه الغرابة في اتحاد فكريهما

قال طارق بن زياد لجنوده بعد أن عبر بهم مضيق جبل طارق سنة ٧١١ ميلادية «أيها الناس أين المنفر . البحر وراءكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا بالصدق والصبر

«وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة . وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ولا أقوات الا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم

«واعلموا أنكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفة الالذ طويلا...

«وقد بانكم ما أنشأت هذه الجزيرة من خيرات عميمة وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عرباناً . ورضيكم الملوك هذه الجزيرة مصهاراً وأخذاناً»

وقال نابليون لجنوده يريد أن يعبر بهم جبال إيطاليا سنة ١٧٩٦ « أيها الجند أنتم جياع . أنتم عراة . الحكومة مدينة لكم ولكنها لا تقدر على معونتكم . فهاأنذا أقودكم الى أخصب سهول الدنيا . أقاليم يانعة ومدن عظيمة . كلها ستكون في أيديكم وهناك تغنون الشرف والفخر والمال »

بقى على أن أذكر آراء بعض رجال العسكرية الممتازين في هذا الموضوع قال شارنهورست : « لقد بدأنا نقدر فن الحرب أكثر من الفضائل العسكرية ولقد كان هذا هو السبب في خراب الالام منذ زمان بعيد »

وقال نابليون « نسبة القوة الجسدية الى القوة المعنوية كنسبة ١ الى ٣ » وقال كلاوزوفتس « القوة المادية ليست أكثر من المقبض الخشب لسلاح ما . أما القوة المعنوية فمعدنه النبيل وحده اللامع المقصود » وقال فون درجولتز « لا يقهر الخصم بتدمير وجوده فقط ، ولكن بآبادة آماله في الانتصار »

وقال أحد القواد المعاصرين من الالمان « على الرغم من التقدم الفنى في العصر الحديث فان العنصر المعنوى برهن على انه (في الغابر كما في الحاضر) العامل الحاسم في الحرب »

وجاء في الفصل الثانى من قانون التمرين على الحروب — للجيش المصرى والانجليزى « يتوقف النجاح فى الحروب على القوة المعنوية أكثر مما يتوقف على القوة المادية . فلا كثرة العدد ولا قوة التسليح ولا المهارة تعوض عن فقدان الشجاعة وفتور الهمة وضعف الزام وروح الاقدام على الهجوم ، وهى التى تتولد من العزيمة الوطنية التى تأبى إلا الانتصار »

اظننى أطلت بعض الاطالة . وأوجزت بعض الايجاز . ولكن أرجو أن اكون قد وفقت إلى نقل صورة واضحة عن هذا الموضوع الذى لا أددى استطاعة القيام ببحثه على الوجه الكامل فان المصادر التى درستها والكتب التى قرأتها قليلة على كثرتها بجانب ما لهذا البحث من شأن خطير .

وأحسبكم تأذنون لى فى أن أتود بكم إلى ماقلته سابقاً فى أثر تنمية الروح المعنوية فى الجند ، لاتكون إلا بهذيب عواطفهم واحياء مشاعرهم وهمة فيئة أفكارهم والعمل على غرس الاعتقاد بالله والاخلاص للملك وحب الوطن من

أهراق قلوبهم . هذا إلى تطبيعهم على انفضائل العسكرية التي توأمها روح الواجب وروح الشرف . وروح السلاح .

فاذا ما سرت هذه الاخلاق المتينة في دماهم ، وجرت في عروقهم ، صمدت الجنود وقت الخطر ، وجمدت ساعة الرعب ، وأدت واجب النفس . ولو كان في ادائه تلف الجسم .

أما الضباط . أما القواد . أما هؤلاء وأولئك فيجب أن يكونوا من النوع الانساني الممتاز ، المحترم ، المحبوب ، الذي يعرف كيف يسيطر بنظره . وكيف يؤثر بكلمة . هو الذي تقده الجنود في حضرته . وتخشاه في غيبته . وليس ذلك الذي يلجأ في تدعيم سلطته إلى شدة الجزاء وضروب الايذاء ، والفاظ التقريع والاستهزاء .

ويجب فوق هذا كله أن يكون مثالا سامياً لجنوده في الثقة بالنفس . وانكار النفس . وضبط النفس . وتضحية النفس .

والتاريخ الحربى تزهو صفحاته باسماء ذوى الكفاية من القواد الذين اتصفوا بكل ما ذكرت . وفوق ما ذكرت فنلسن . . . أعظم أبطال انجلترا البحريين يعطيك صورة نبيلة للجنودية الصحيحة فى آخر واقعة (الطرف الاغر) ويريك كيف يكون شرف النفس . ونبالة القصد . فانه صعد على ظهر السفينة فى بدء المعركة وأرسل كلمته المشهورة « ان انجلترا تنتظر من كل فرد أن يؤدي واجبه » وكان يرتدى أبهى ملابسه ، وأزهى أوسمته وتشاريفه . فرأى بعضهم أن هذا قد يكون سبباً فى توجيه الرصاص اليه من الاعداء . وأنه من المناسب أن يخلع أوسمته حرصاً على حياته ولكنهم ما استطاعوا أن يخاطبوه فى ذلك لانهم يعرفون رده

« فى ساحة الشرف حصلت عايتها . وفى ساحة الشرف أموت بها »

وقبل أن تنتهى المعركة بفوز لم يره فى حياته ، صوب اليه ملاح فرنسى رصاصة اخترقت صدره ، ونفذت من ظهره . فوقع على وجهه . وأحس بعد ذلك أن جرحه هذه المرة مميت فلم يشأ أن يدع الجراح يتعهده قبل أن يرى الجرحى من الجنود . . .

ولما أخبروه بالانتصار التام . صاح وهو يعالج سكرات الموت « الحمد لله

لقد أديت واجبي» وتلك الكلمة العظيمة كانت آخر كلماته

ونابليون في موقعة (جسر لودي) عندما وجد النمساويون يحملون البلد ، ويمشون فوق الجسر بمدافعهم ، ونيران بنادقهم ، رأى أن النصر لا يتم إلا بعبور ذلك الجسر الضيق الشديد الخطر . ولكن القوادتهم بهور والمغامرة والمجازفة والمخاطرة إلى غير ذلك من الأقوال التي لم تثبط من عزيمته . ولم تهبط من همته . فاختار من جنوده أشجعهم وتناول بيرقا . وصاح في جنوده « اتبعوا قائدكم » . ثم صار في مقدمتهم والرصاص يتناثر والقذائف تتساقط . والدخان يملأ الجو . ومدافع الأعداء تحصد فيهم حصداً . وعلى الرغم من ذلك . وصل إلى الشاطئ . وعلى الرغم من ذلك ، انتصر . واستولى بهذا الاستبسال النادر على قلوب العساكر والقواد وحصل على اللقمة التي ليس بعدها نقمة . والتي انتفع بها في معاركه وارتفع بها ذكره في التاريخ (الملازم)

ذكرى ١٤ سبتمبر

في مساء يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ دخلت خيالة الجيش الإنجليزي بقيادة الجنرال « لوى » مدينة القاهرة فتم بذلك للغاصب المعتدى احتلال البلاد المصرية والقضاء على كل مدافعة من جانب المجاهدين المصريين لدفع الضر عن وطنهم المسكين الذي ما كاد يطرح عن كاهله مفارم الاستعباد القديم ويأخذ بأسباب الحياة الحرة ويجهز لها ما تتطلبه من وسائل التقدم والنجاح حتى وجد في طريقه دولة إنجلترا تسد في وجهه مفتاح الأبواب وتعمل بكل قواها على حرمانه من حقه في الحياة توالى على مصر أيام سود كانت فيها نهباً مقسماً بين مطامع كثير من الشعوب المفيرة ومسرحة لمختلف أنواع المظالم والمنكرات . فما زالت تعتمص بالصبر والثبات والعمل المتواصل على كسر ما أحاط بها من قيود ورفع ما اعترض حياتها من موانع ، حتى فازت بالدستور الذي أسلم مقاليد أمرها إلى أيدي أبنائها . فخطت بذلك أولى خطواتها نحو الحياة الحرة المستقلة .

ولقد فرحت الامة يومئذ بدستورها وعاشت عليه آمالاً كباراً لم تتحقق لسوء حظها لأن انجلترا لم تطق أن ترى في مصر الفتاة أمة ناهضة توسع الخطا في طريق الاستقلال وتوشك أن تتبوأ مقعدها اللائق بها وبمجد فراعينها الاولين . فوقفت حجر عثرة في سبيل أمانيتها وغاياتها المشروعة المباحة وجعلت تحاربها بمختلف الوسائل العدوانية — سرّاً وعلانية — حرباً انتهت بالاحتلال المشؤم الذي تم لها أمره في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

لامشاحة في أن ذكرى ذلك اليوم المنحوس تبعث في نفوس المصريين جميعاً أشد المرارة والحسرة . وتحرك فيهم عواهل السخط والمقت نحو اولئك الواغلين الظالمين الذين فوتوا عايهم — باعتدائهم الجنائي — مغنم كثيرة كانت ترى على مر الايام وتؤتيهم أطيب الثمرات . وليس بدعا أن يؤدي المرشدون والمصاحون واجبهم الوطني في مثل هذه الحالة ، فيذكروا مواطنيهم بما غبر من أيام محنتهم اثاره للعزة الوطنية في نفوسهم . فهكذا صنعت من قبلنا الامة المغلوبة على أمرها فعادت بعد أن كانت مفككة العرى مقطوعة الاوصال تتراءى للابصار في وحدة هيبه ، وحلة قشبية ، وقوة متينة . وتلك لعمري مظاهر جد ترهب الغاصبين فلا يحسنون العبث في ضوءها مهما كانوا عتاة متبادين .

وإذا كان هذا التذكير وسيلة محموده مرغوباً فيها لاستنهاض الهمم وتحريك العواطف القومية في الامة المستعمرة (بفتح الميم الثانية) فانه مما يبعث على الامل في الوصول إلى هذه النتيجة المنشودة أن يضطلع بالامر أناس يقدرّون المصلحة الوطنية العليا حق قدرها ويعرفون كيف يعملون شأن أمهم ويخدمون أنفسهم وأعقابهم أجل الخدمات وأشرفها .

فللتذكير بحادثة من الحوادث الجسام يقضى الواجب الوطني على المذكرين المرشدين أن يتحرروا أسبابها ومقدماتها ويبحثوا عما أحاط بها من حقائق وأسرار بحثاً ينتهي بهم إلى ايجاد وجهة نظر قومية بحجة لا تتعارض مع الحقائق العامة التاريخية .

ولكن فريقة من الكتاب في مصر كثيراً ما يتخطى هذه الاعتبارات الجوهرية فيما يدلى به الى الامة تذكيراً لها بعدوان ساليب حريتها ، ولفتاً لنظرها إلى أساليب ختله ومكره .

وقد يغلو بغض هذا الفريق ويتجسس في عناده فيسلم — في حوادث مرتبطة بتاريخ البلاد وجهادها القومي كل الارتباط — بوجهة نظر أعداء حريتها واستقلالها تسليماً مزرياً يجرح الكرامة الوطنية ويحط من قيمتها العالية . بل قد يذهب أحد أولئك الكتاب إلى أبعد من ذلك فيهمل — عن عمد — حقائق لا خلاف فيها وقد سلم بها أشد أنصار الاستعمار تطرفاً . وهي بعد مما يتعشى مع وجهة نظرنا القومية . وفي التشبث بها كل الصاحبة لنا ولقضيتنا العادلة . وهذا مما يؤسف له كل الأسف .

فالحقيقة الثابتة التي لا سبيل إلى النزاع فيها هي أن انجلترا بطشت بالمصريين ظلماً وعدواناً تحقيقاً لأغراضها الاستعمارية التي سمعت منذ أكثر من مائة عام في سبيل الظفر بها وملء يديها منها .

لم تعتمد انجلترا في عدوانها على المصريين إلا على القوة القاهرة . نهبها وحدها خرقت القوانين الدولية وأقدمت على فعلتها الهمجية التي استخضت عليها أحرار أبناءها قبل غيرهم من أحرار الأمم الأخرى . وإلى القراء ما جاء في رسالة للمستتر بنيت بعنوان « خراب مصر » جعلت مقدمة لكتاب وضعه تيودور روتستين ونقله إلى العربية الأستاذان الفاضلان عبد الحميد العبادي افندي ومحمد بدران افندي قال : — « عندما كان السير يوشامب سيمور يطاق نيران مدافعه على الاسكندرية (لأمر لا يعلمها بالدقة السان) ظهرت نشرة صغيرة عنوانها (السطو على المصريين . نبأ فاضح) أورد فيها كاتبها مستعداً من الكتاب الأزرق مجمل دسيسة الدائنين ، وكيف أدت إلى انحياز انجلترا إلى دائني مصر ضد المصريين ، وعددها قضية هؤلاء الدائنين قضية لها . واذكر أيضاً ما قاله ذلك الحر المتطرف القاب المرحوم السير ولفرد لوصن عندما قرأ هذه النشرة (لو نشرت من أشهر لما أقر الشيخ الجليل المستر غلادستون هذا الحيف فقط) وهو قول صحيح . ولقد طبعت النشرة المذكورة ست مرات في نحو ستة أسابيع وأغضبت كل حر صادق الحرية اطلع عليها واثارت اسفه . غير أن ذلك الأسف الذي جاء بعد فوات الوقت ولم يكن ليقف الحرب قد وسم حكومة ذلك العصر بميسم العار . »

وقال المستر تيودور روتستين في كتابه الذي أشرنا إليه : — « ومهما يكن

من شيء فقد اتضح ان انجلترا عقدت النية على أن تجبه الدول بحقيقة واقعة تذر
 المذكرة المشتركة التي قبلتها الدول قصاصة ورق ليس فيها غناء ، وترى
 انه في كل نظام يوضع لحل المسألة المصرية يجب أن يكون لانتحرا الحظ الاوفر
 من النفوذ . ولا مراة في أن عملها هذا كان يخشى منه عليها . ولكنه أفلح كما
 يفلح كل عمل وتحت تقوم به دولة شديدة البطش والسلطان . لم تكن الحقيقة
 الواقعة التي أتهمها انجلترا غير ضرب الاسكندرية بحجة أن المصريين كانوا يقوون
 بتحصينات تهدد الاسطول الاجنبي . وهي حجة أجاد تسخيفها المستر ريشردز
 في البرلمان الانجليزي إذ قال (أجدر جلايخوم حول بيتي وعلامم الاجرام بادية عليه .
 فأبادر إلى إحضار الاقفال والمتاريس وأحكم سد نوافذى . فيقول ان هذه إهانة
 له وتهديد . ويحطم على أبوابى ويعان انه إنما فعل ما فعل دفاعا عن نفسه ليس غير)
 والحق أنه لا شيء أخط قيمة ولا أصرح تنافا من الحجة التي شرع بها الانجليز
 في ضرب الاسكندرية وهي مدينة لها شأن عظيم في عالم التجارة ولا يتلى عامرها
 لذلك العهد عن مائة ألف نسمة . »

ويقول المستر روتستين في موضع آخر : « إنه ليس معقولا أن يحتج الانجليز
 بمخطر يهدد حياة الرعايا البريطانيين لانه لم يكن ثمة خطر ما . إن رجال القنصلية
 البريطانية كانوا طوال شهر يونية بالاتفاق مع أمير البحر سيمور يخرجون الرعايا
 البريطانيين من مصر إما إلى سفن الاسطول أو إلى بلدانهم . وهذا يؤيد ما عرفناه
 من مصدر مباشر من أن ضرب الاسكندرية كان قد تقرر من أول شهر يونية . »
 ثم قال : « إننا نهمنا تلك الحقيقة الساطعة وهي أن انجلترا قد خرقت حرمة القانون
 الدولي وأتت أمرا هجيا لم يسبق له مثيل . أمرا لو صدر من دولة أضعف منها
 لحوسبت عليه حسابا عسيرا . »

فإذا تقرر أن انجلترا أقرمت في اعتدائها على مصر مع سبق الاصرار على
 الجريمة كما هو ظاهر من الاقوال التي أوردناها للكاتبين سالفى الذكر وأشباهاها
 لغيرها من كتاب الغرب الاحرار فقد وضع واجب المرشدين والمذكركين وسهل
 عليهم إيجاد وجهة نظر قومية يثبتونها في أبناء البلاد كلما دعت الظروف والمناسبات
 إلى ذلك إبتغاء شحذ العزائم وإثارة الحمية الوطنية في القلوب .

ولكن هل يمكن أن تتحقق هذه المصلحة الوطنية العليا ، ويرجى أن تستثار

الحمية الوطنية وتشهد العزائم إذا غفل أولئك المرشدون والمذكرون عن هذه السبيل المأمونة المفهومة وراحوا يتحسسون عورات من ضحوا بأمنهم وراحهم ووقفوا في وجه المنجترا تابية للواجب الوطني المقدس لا يلوون على شيء!! والواقع الذي يؤسف له كثيراً أن في مصر طائفة من كتاب الحزب الوطني يأبون إلا أن يصموا عرابي بعيب ما لحاجة في نفس يعقوب . ولسنا هنا بسبيل إثبات هذه الحقيقة وإنما نريد أن نقول أن هذا المنهاج الذي ظلوا فيه إلى الآن جدير بهم أن ينصرفوا عنه فهو ليس يضير الثبات على المبدأ في شيء لا سيما وقد وضحت اليوم للخاصة والعامة شواهد وحقائق كانت من قبل خافية مجهولة ويكاد يكون كل حجج أولئك الكتاب وبراهينهم في اتهام عرابي ما اذاع الغاصب من أباطيل وردد المغيظون اعداء حريتها واستقلالها من تلك المفتريات المختلفة .

يحملون المفرضين من كتاب الغرب سندهم في اتهامهم فيظلمون البلاد ويؤيدون وجهة نظر اعدائها فما اخسر ما يربحون .

ما نحب أن ندخل في جدل مع هؤلاء الكتاب وخاصة في الظروف الحاضرة . لكننا نرجو أن نلقاهم إلى أن ترد يد تلك النعمة المؤسفة في مقام تذكير الأمة بيوم من أيام نحوسها لا يكسبها شرفاً . بل يميت فيها الشعوب بالثقة بزعمائها ورجالها العاملين . وهذا هدم شنيع لا يمكن أن يوصف بالخدمة الوطنية . وكان الخلق بهم إن كانوا حقاً طلاب الحقيقة التاريخية والصالحية الوطنية العليا ان يتحرزوا في اتهامهم العظيم الذي يتهمون به عرابي . ويصبروا على ما في نفوسهم حتى يروا البرهان المبين على صدق ما يدعون . كتب الاستاذ احمد وفيق في يوم ١٤ سبتمبر الماضي كلمة في جريدة الاخبار الغراء بعنوان (فذكر إن وقعت الذكرى) قرأتها متأخراً وأسفت على ما جاء فيها من معلومات غير صحيحة فيما يختص بحادثه ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ والدور الذي لعبه عرابي فيها — نقلاً عن كاتب يدعى (كوشري .) ولا شك في انه لم يورد أقوال (كوشري) هذا الا لانه مقتنع بصحتها أولانه على الاقل يرجو أن يقنع القراء بصحتها . ومن هنا يأتي الاسف لانه مما لا يمكن تعليقه أن يتعاق بعض المشتغلين بالتاريخ والسياسة عندنا بأذيال كتاب من أمثال (كوشري) اذا خطرت مصر ببالهم فلكى توظيفهم الشهوات

فلا يصدر عن فيما يقولون ويفعلون الا عنها ولا يكونون لنا الا ضداً . والحال ان طائفة أخرى كبيرة من أحرار الغرب وخيرة كتابهم وصلت الى الحقيقة ببحثها ونزاهتها فأذاعتها وانصفت مصر في محنتها تلك وكانت معها تقريراً للحقيقة وإرضاء لشعورها الانساني الشريف : ولا يمكن أن يفهم الخطأ في اختيار أى الفريقين أولى وأقرب إلى المصلحة الوطنية أن يكون شاهداً في مواطن الذكرى والاعتبار ! وماذا قال (كوشري) هذا الذي نقل عنه الاستاذ وفيق . قال — بعد كلام طويل صور فيه المعارك التي نشبت بين المصريين والانجليز كأنها رواية تشيلية — « ففي الواقع ما أجمل هذا النصر وأروع ذلك الذي يحزره الانسان على عدو مهذار يعبد الظواهر ويرمز إلى قائده الاعلى بأحجار الشطرنج وليس في مقدوره إلا أن يبيع نفسه لمن يتقدم سخياً ولا آخر مزايده . إذن من ذلك الرجل الذي سلم في بلاده للاجنبي ؟ ويلوح لنا أن الانجليز خلقتهم من جميع الخرق البالية ليكون دعامة يركن اليها في قضاء حاجات قضيتها ؟ انه عرابي »

ففي بضع كلمات زيف الحركة الوطنية وآتهم زعيمها بأشنع الجنايات فهو بلا شك عدو لدود للفكرة الوطنية التي شاعت في أرجاء مصر في تلك الايام وأقل ما يمكن أن تقابل به أقواله هو التحفظ الشديد إن لم يكن الرفض البات . ومع ذلك فلا يزال يوجد فينا من يذيع أقواله وأقوال أمثاله في مقام الاستشهاد كأنها بعض التنزيل الحكيم

على ان الرجل في الواقع لا يهمه عرابي ولا جيشه . ولا تهمه الحركة الوطنية ولا الكرامة القومية ولكنه يريد الوصول الى غرضه بجميع الوسائل . فشططه وهو ذو غرض — مفهوم . أما نحن فماذا يلجئنا الى هذا الشطط وأى شيء يفسرنا على مثل هذا التحمل والاعتساف ؟ هذا لعمر الحق غير مفهوم .

ولكى نثبت أن (كوشري) هذا كان يصدر عن غرض فيما كتبه في هذا الشأن . نأتى بعد على بعض أقواله التي تكشف لنا عن ذلك الغرض . قال : « ولم يكن القائد الانجليزي أضعف من أن يظفر بعدوه وينكل به تديكلاً . لم يكن من السير جانت ولسلي الذي لم يكن بعد الفيلد مارشال فيكونت ولسلي أوف كايزرو والقائد العام للجيش البريطاني إلا أن يكون ابن الحظ الرقيق السريع العطب بعد تلك المعارك الخرافية . إنه لم ير في مصر تلك الزوابع التي قصفت

جنده في سنة ١٩٠١ — تلك التي جعلته مسؤولاً عن اندخاراته في الترنسفال تلك التي اضطرته إلى أن يأتي مقهوراً ذليلاً ليدافع عن نفسه أمام مجلس اللوردات. ويتراجع بذاته عن قضيته الخاصة الخاسرة وسط زملائه النبلاء الخ الح « فالرجل كما ترى يكره القائد ولنسلي الأنجليزى ويتعقبه ليقبل من قيمة انتصاره ويهول من شأن خذلانه . واذن فما أعجب أن نتخذه نحن فيصلا في قضايا جهادنا الوطنى !!

وبعد فانا نرجو أن يكون في مرور تلك الذكريات المؤلمة ما يلفت أولئك الكتاب الى وجه الخطأ فيما هم فيه متمادون . هداانا الله وإياهم الى ما فيه الخير والصواب

عبد السميع عرابى

الزولوجيا

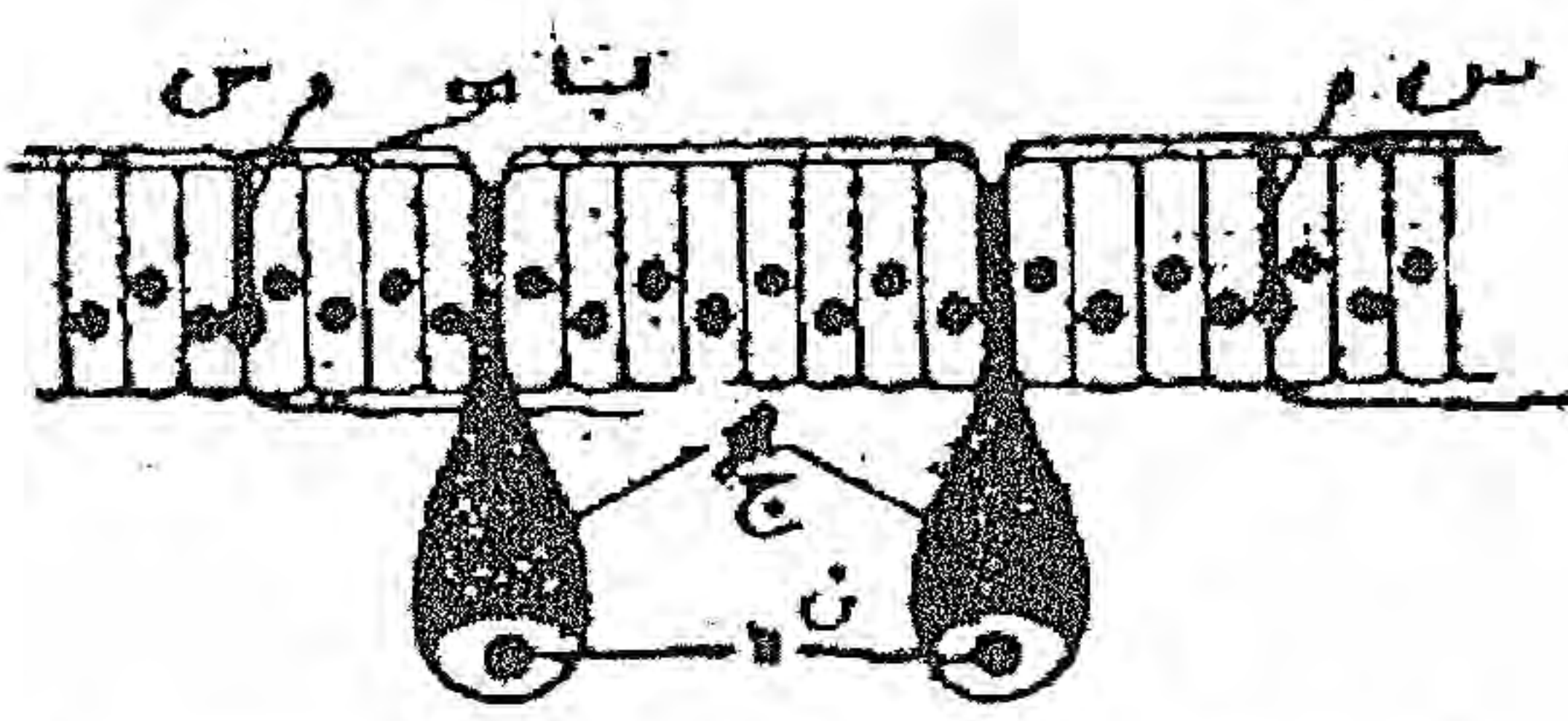
أو مبادئ علم الحيوان

— ٤ —

أصناف الخلايا المختلفة — الانسجة

علمنا من قبل أن المادة الحية في أجسام الحيوانات العليا تنقسم إلى خلايا . وهذه الخلايا على كثرتها لا تماثل أنواعها أبداً . بل يختلف بعضها عن بعض في الحجم والشكل والخصائص . بيد أن هذه الخلايا المختلفة الأحجام والأشكال يمكن حصرها وتبويبها تحت قليل من الصور الرئيسية ، في حين أن الإحاطة بهذه الصور ، والوقوف عليها سنادة ضرورية لكل من يريد أن يفقه شيئاً من حقيقة المصطلحات اللغوية التي توصف بها تراكيب أنواع الحيوانات على اختلافها وتباينها . ولاشبهة في أنه من المستطاع أن نقارن هذه الصور بالحروف الأبجدية التي نتركب منها الكلمات في أية لغة من اللغات ، تؤخذ فيها أنواع الحيوانات على

أنها جل لها معانيها وبلايتها . على أن الضرورة التي تقضى بالعكوف على درس هذا الجدول الابددي ، هي التي تجعل علم الحيوان بفيضاً عند المبتدئين ، وتدمغ مباحثه بدامغ علمي بحث يظهره بادي الأمر مملاً غير أخاذ . اما اذا حفظ ذلك الجدول الابددي واستوعب ، فان علم الحيوان يصبح لدى المكبين عليه أكثر العلوم أغراء بالعلم ، وأشدّها أخذاً بالالباب . فان الطالب الذي لا يزال في جهاد يحاول من طريقة أن يستقوى على مصائب الذخو والاعراب وحفظ معاني المفردات ، يجد أن درس اللغة اللاتينية مثلاً من أمج الاشياء ، وأبعدها عن الاغراء بالحفظ . على الضد ممن نال اجازته في آداب القدماء ، فانه يجد أن درس مؤلفي العصور



ش ٣ — يمثل ابثيلوم عمودي بسيط يحتوي على خلايا غدية وخلايا حسية (ب) البشرة (ج) خلية غدية (ن) نواة (س) خلية حسية

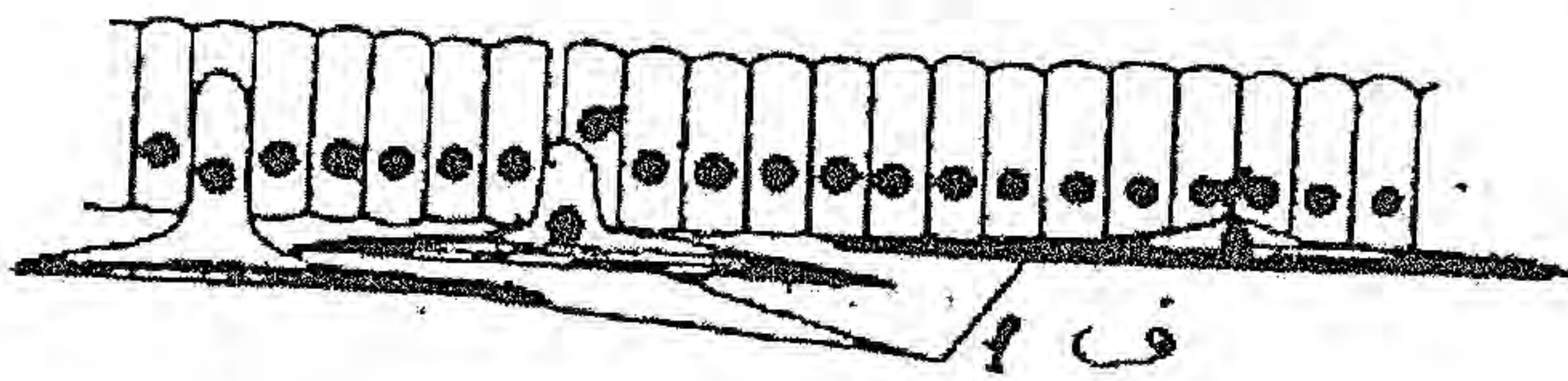
القديمية والاكباب على نواتج أبحاثهم حفظاً ودرساً ، من أكثر الاشياء احياء لكامن عواطفه ، وأشدّها ايقاظاً لهمة ، وأخذها بيده الى الرقي ، وأبشها على الذة والرضا بالحياة .

ان أبسط انواع الخلايا هي التي تكون عمودية الصورة ذات أوجه داخلية او خارجية ، ولها جوانب كثيرة تلائم جوانب الخلايا الاخرى التي تقع بجانبها حتى أن الكل يكون « سطحاً ممهوداً » يعرف في الزولوجيا اصطلاحاً باسم « الابطيليوم » — Epithelium — (كلمة اغريقية من إبى — Epi — أى فوق وثيليون — Thelion — أى آجر) وهذا السطح الممهود يكون الغطاء الخارجي لكثير من أنواع الحيوان . وهو كذلك يحيط بالمعدة والامعاء في الحيوانات التي يكون لها هذا التركيب العضوي ، أما الخلايا التي يتكون منها هذا الجهاز فيقال لها « الخلايا الابثيائية » — Epithelial cells — وهي خلايا يختلف مقدار ارتفاعها اختلافاً كبيراً بالقياس الى مقدار قطرها . فقد يكون ارتفاعها ضئيلاً حتى أن الخلية تلوح كالوح من الآجر مسطح تماماً ، ولكن ارتفاعها قد يزداد في بعض الحالات ، فتكون الخلية أشبه بعمود قائم على قاعدته . وحيثما تبحث مادة الابطيليوم بحثاً مدقاً تظهر كل خلية منها مرتبطة بما جاورها برقائق من المادة الحية أشبه بالعصى الصغيرة مخترقة الغشاء الخلوي . فاذا اكبيننا على

درس ابثيليوم خارجي، وجدنا أن كل خلية من خلاياه في الحالة القياسية (أي الطبيعية) تفرز على وجهها الخارجي مادة قرنية أو جلاتينية تدعى اصطلاحاً «البشرة» — Cuticle — تحمي المادة الحية من هجمات أعدائها الخارجيين، في حين أنها تتمتع بوجهها الداخلي الغذاء مستخاضاً من سوائل الجسم الحي. أما حالات الابطيليوم الداخلي فمختلفة عن هذه اختلافاً كبيراً. فإن وجه الخلية الداخلي ينتج افرازاً يساعد على هضم الطعام الذي قد يكون قد ازدرد، ثم هو في الوقت ذاته يمتص ما انتج الهضم من مواد، في حين أن الوجه القاعدي — Basal Face — من وجوه الخلية تنحصر وظيفته في أن يزود سوائل الجسم الداخلية بمنتجات الهضم بعد امتصاصها. أما في الحيوانات العليا فإن خصائص إنتاج العصير الهضمي والامتصاص غير منوطة بهذه الخلايا. فإن بعض الخلايا يختص بافراز العصير الهضمي، في حين أن غيرها يختص بالامتصاص. وقد سميت الخلايا التي اختصت بالاخراج اصطلاحاً «الخلايا الغدية» — Glandular Cells — لأنها تتكون من كتل أو جموع، كل جمع منها يدعى اصطلاحاً «غدة» — Gland — وكثيراً ما يحدث أن الخلايا التي تتركب غدة من تلك الغدد، قد تتراكم مرتبة بحيث تحيط بدواء أشبه بجيب مدلى غير مثقوب يكون في المعدة أو الأمعاء. وهذا النتوء الجيبى يجوز أن يتفرع، وربما ينتج عن تفرعه باستمرار كتلة غدية عظيمة الحجم. والكبد الانساني الذي هو أكبر أعضاء الجسم الداخلية حجماً، مثال رائع في غدة متفرعة بلغت من الكبر هذا المبلغ الخطير.

في كثير من الحيوانات الارضية التي يجب أن يظل سطح بدننا الظاهر في حالة ملوسة تامة دائماً لئلا يمتنع بذلك أن يصيبها الجفاف، نجد أن الابطيليوم الخارجي قد احتوى على عديد من الخلايا الغدية في سلسلة منتظمة تماماً. وما الغدد التي تفرز «العرق» — Perispiration — في أجسامنا الا مثل رائع لهذا النظام الارتقائي العجيب. ولكننا بجانب هذا يجب علينا أن نعي أن الغشاء الرقيق الذي يمكن لهذه الخلايا الابطيلية أن تكونه على سطوحها الخارجية، هو عبارة عن افراز ناتج من انحلال المادة الحية، وأنه لا يمكن أن يوضع حد للتفريق بين مثل هذا الافراز وافراز آخر سائل مثل العرق الذي تفرزه أجسامنا مثلاً، على اعتبار أننا وقفنا على كل حلقة وسطى من الحلقات التي يتم بها الافراز ودرجاتها التي

تصل بين بعضها وبعض . وعلى هذا نقول بان الخلية الغدية هي عبارة عن غدة
ابثيلية عظمت خاصية الافراز فيها، وانها اختصت فوق ذلك بان يكون افرازها سائلي
نتقل بعد هذا إلى الكلام في الخلايا التي يحدث بها الانقباض . فاول مانعثر
عليه في هذا البحث هو أن جزء عظيم من المادة الحية قد تحول إلى الياف قابلة
للاقباض ، وصفنا من قبل تركيبها العضوى (ف ٣) وهذه الخلايا قد صرف
عليها اسم الالياف العضلية Muscular Fibres اصطلاحاً . غير اننا يجب أن نعى
هنا أن اصطلاح « اللييفة العضلية » Muscular Fibre غير اصطلاح « اللييفة العضلية »
Muscular fibril (ش ٢ ف ٣) لان كلا منهما يؤدي معنى خاصاً . فالليفة العضلية
عبارة عن « خلية » نتركب مادتها السيتوبلاسمية عادة منه عديد من اللييفات،
مضافاً إلى ذلك كمية خاصة من رواسب سيتوبلاسمية تستوى فيها النواة . وفي
الحالة التي تكون فيها اللييفات صافية أى « غير مخططة » تكون الخلية طويلة
مستدقة الشكل ، وتظل النواة فيها مفردة . أما في الحالة التي تكون فيها اللييفات
ذات « تخطيط قطعى » فان الالياف تمعن في الطول ، وتنقسم النواة على نفسها
مولدة بذلك كثيراً في الانوية المستحدثة عن النواة الاولى ، وترى موزعة على
طول اللييفة ، بحيث يكون كل منها مظروفاً في كن من البروتوبلازما غير المكيفة



Unmodified (ش ٢ ف ٣)

ومما هو جدير بانعام

النظر والاستقصاء، اننا

اذا اكبنا على فحص

سلاسل مختلفة من

ش ٤ — يمثل التعبير التدريجى الذي يقع على الخلايا الابثيلية
لتصبح خلايا عضلية (ف) الاذئاب القاعدية للخلايا وفيها تظهر
الييفات المنقبضة

الحيوانات ، عثرنا خلال البحث على كل الحلقات الوسطى التي تصل بين
الخلية العضلية والخلية الابثيلية . فانك تجد في صفوف معينة من الاسفنج ،
يمكن أن نعتبرها أحط صور « الميازووا » أن الخلايا التي يتركب منها
الابثيليوم الخارجى تنقبض اذا نهت بمنبه ما . فاذا ارتقيننا بعد ذلك خطوة
أخرى ، ونظرنا في صور من الحيوانات الميازووية أرقى من هذه واخترنا
مثلاً « ديسم البحر » — من الشعاعيات — نجد أن الابثيليوم الداخلى فيه خاصية
الانقباض . ولكننا نجد مع هذا أن كل خلية ابثيلية منقبضة قد تحولت قاعدتها

إلى ليفة ، وأن ما تحوى من السيئوبلازما قد تغيرت فأصبحت ليفة عضلية *
أما خاصية الانقباض فمقصورة على تلك القاعدة المستطيلة وحدها *

يمكننا أن نعثر في فصيلة « دياسم البحر » Sea anemones على كل حلقات التدرج الوسطى التى تصل بين خلية تحتوى على أجزاء إيثيلية كبيرة تقوم مقام الاسافين إذ تربط الخلايا الإيثيلية المجاورة بعضها ببعض ، وبين خلية تكون قد انضمرت فيها تلك الأجزاء الإيثيلية حتى أصبحت مجرد زر بسيط ، يتكون لدى الحقيقة من الليفة ذاتها . ومثل هذه الخلية لا يمكن تمييزها عن ليفة عضلية بسيطة عسوية الشكل . والانقباض فى « دياسم البحر » أسرع بكثير منه فى الاسفنجيات . وهذا يرجع الى حقيقة أن ليفات عضلية معينة تدعى اصطلاحاً الميونيمات (١) Myonemes أى — الخيوط الشفافة — تنمو وتتهذب فى إحدى الحالتين ، ولا يصيبها النماء فى الأخرى .

من هنا نستنتج أن الخلايا الإيثيلية هى الخلايا الأصلية الأساسية ، وأن الخلايا الغدية والخلايا العضلية صور مشتقة عنها بطريق التحول والنشوء . غير أن الخلايا الإيثيلية ، فضلاً عن هذا ، فى مستطاعها أن تقبل صوراً من الارتقاء والتهذيب لا تقل عن هذه الصور شأناً ولا تنزل عنها خطورة .

تقوم الحيوانات بأفعال عاكسة أو رادة . ومعنى هذا أنها تغير نموذج عملها تبعاً للتغيرات التى تقع حفافها . وهذه التغيرات مثل تغيرات الاحترار (٢) Temperature — ودفع الأجسام الخارجية ، وتأثير الضوء والصوت ، تؤثر فى الحيوان من طريق الإيثيليوم الخارجى ، وعلى هذا نجد أن خلايا معينة فى هذا الإيثيليوم قد تكيفت تكيفاً خاصاً بحيث تستطيع أن تقبل هذه الآثار ، وأن تنقلها الى غيرها . وهذه الخلايا تدعى اصطلاحاً الخلايا الحساسة — Sensory Cells (ش ٣) وتوجد فى أبسط اصناف خلايا الحس أن كل خلية منها تحتوى على شعرة حساسة — Sense tails أو أكثر تبرز على سطحها الخارجى ، ويمكن

(١) فى النقبليات — انفيوزوريا — Infusoria — والسوطيات — فلاجيلاتا —

Flagellata خيوط شفافة قابلة للانقباض تقوم بوظيفة الالياف العضلية فى الميتازووا .

(٢) صرفت على Temperature اصطلاح (الاحترار) بدلا من درجة الحرارة تيمناً له

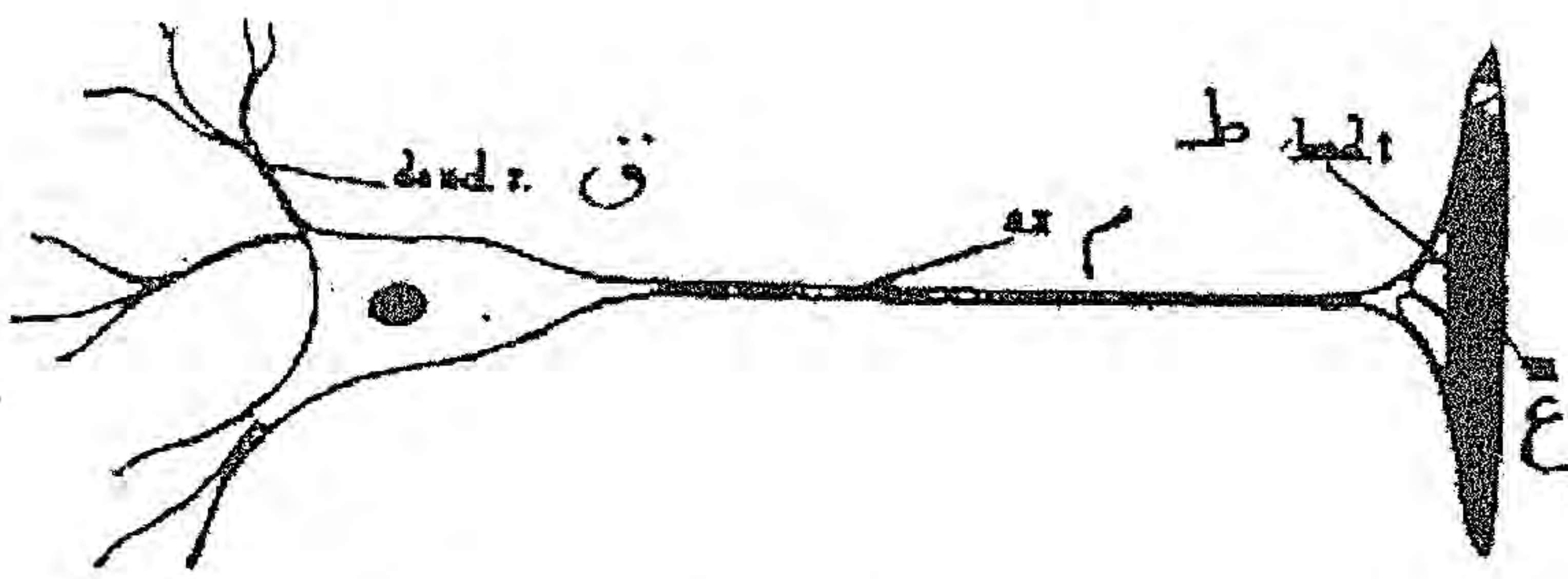
عن اصطلاح Heat أى حرارة

أن تهتز اهتزازاً متداركاً بتأثير الصوت ، وإذا ضغطت قامت بوظيفة «المخلات»
(١) لتنتقل الضغط من سطح الخلية الى داخلها .

أما « الخلية البصرية » Visual Cell التي تتأثر بالضوء والتي تكون العنصر
الجوهري في كل أعضاء الابصار ، فتحتوى على جهاز زجاجى شفاف أشبه بالعصا
بدلاً من الشعر الكث الذى يكون فى غيرها . أما الكيفية التي يهيج بها الضوء
الخلية البصرية ، فذلك ما لم يتف عليه العلم حتى الآن . ولكن المعروف أن
وجود نوع آخر من الخلايا أمر ضرورى ، حتى يصبح من المستطاع أن تتقبل
الخلية البصرية حساسيتها للضوء . ويدعى هذا النوع من الخلايا « الخلية الصابغة »
Pigment cell خاصيتها العظمى أنها تفرز حبيبات من مادة قائمة اللون جداً تدعى
اصطلاحاً « بالصبغ » وقد يختلف وضع الخلايا البصرية والخلايا الصابغة . فهي
أما أن تتجاور بأجنابها أو تتناظر بأطرافها . وقد ذهب البعض الى القول بأن
الاهتزازات السريعة التي تحدث تموجات الضوء ، تحل الصبغة وتحدث مادة كيمائية
ناشطة التأثير تهيج العصا الزجاجية . غير ان هذا القول مجرد ظن لا يغنى عن
الحق شيئاً . فان الخلايا التي تتأثر بالروائح العطرية لها شعرات شبيهة بالاهداب
(أنظر أول ف ٣) تبرز فوق سطوحها الخارجية ، ولكننا حتى الآن لم نقف
على رأى قاطع فى كيف تؤثر تلك الدقائق التي تكون مادة الشم ، وهي تبلى منتهى
ما يتصور من صغر الحجم ، فى تلك الشعرات

من أجل أن تحدث التأثيرات التي تصل الى الخلايا الحساسة فعلاً ما فى سلوك
الحيوان ، يتعين أن تنتقل تلك التأثيرات الى الخلايا المنقبضة والخلايا الفارزة التي
تحدث ذلك الضرب المعين من السلوك ، وما عدا بعض استثناءات يساورها الشك .
نجد أن انتقال تلك التأثيرات لا يكون بصفة مباشرة مطلقاً ، بل ان الآثار التي
تقبلها الخلايا الحساسة لابد من أن تتجمع فى خلية مركزية يقال لها اصطلاحاً « الخلية
العصبية Nerve Cell » أو « المركز العصبى Neuron » ومنها تنتقل الى الخلايا الغديه والخلايا
المنقبضة . ولكل خلية من الخلايا العصبية طرفان . طرف قابل وطرف ناقل . أما

الطرف القابل فيتكون عادة من مجموع زوائد تنمو على سطحها فتكون أشبه



بالجذور وتسمى

اصطلاحاً « الشعب

القابلة » Receptive Dendrites

وهذه تكون ذات

صلة وثيقة بالطرف

الناقل من خلية عصبية — يمثل مركزاً عصبياً أى خلية عصبية متصلة بخلية عضلية بسيطة التركيب (م) محور (ق) شبة قابلة (ط) شعبة طرفية (ع) أخرى أو بالقاعدة من خلية عضلية

خلية حساسة . أما الطرف النازل فعبارة عن ليفة ذوية تدعى اصطلاحاً (ش هـ)

« المحور Axon » ، ودونيتي عادةً بمنصلة من الفريعات تدعى اصطلاحاً « الشعب

الطرفية Terminal Dendrites » وهذه تكون ذات اتصال وثيق إما بالطرف القابل

في خلية عصبية ، وإما مرتبطة ارتباطاً ما بخلية عضلية أو خلية غدية . وقد

يتشعب « المحور » وتنتهى كل شعبة من شعبه بمثل ما ينتهى الجذع الاصلى تماماً .

وهكذا يمكن أن تكون شعب الطرف القابل من خلية عصبية ذات اتصال بكثير

من الخلايا الحساسة ، وليس بخلية واحدة ، وعلى هذا يمكننا أن نحدد الوظيفة العظمى

للخلية العصبية بأنها :

« تجمع بين الآثار المختلفة التى يقبلها عديد من الخلايا الحساسة وتوزعها

على جملة من الخلايا المنقبضة والخلايا الغدية »

ومن هنا نحكم أن قابلية الحيوانات للتكيف لا ترجع الى مجموعة من « الهزات »

أو « الرجاءات » المنفصل بعضها عن بعض ، كما كان يحدث لو أن كل خلية عصبية

كانت تنقل قواسرهما مباشرة الى خلية عضلية ، بل تأخذ صورة فعل عاكس ذى

نظام معين يقوم به مجموع الجسم الحى ، إما ليقربه من الاشياء المرغوب فيها

أو ليبعده عن الاشياء غير المرغوب فيها ، وعلى الجملة نجتمع القول فى أن :

« وظيفة الجهاز العصبى Nervous System لا تنحصر فى تأصيل الافعال وخلقها من

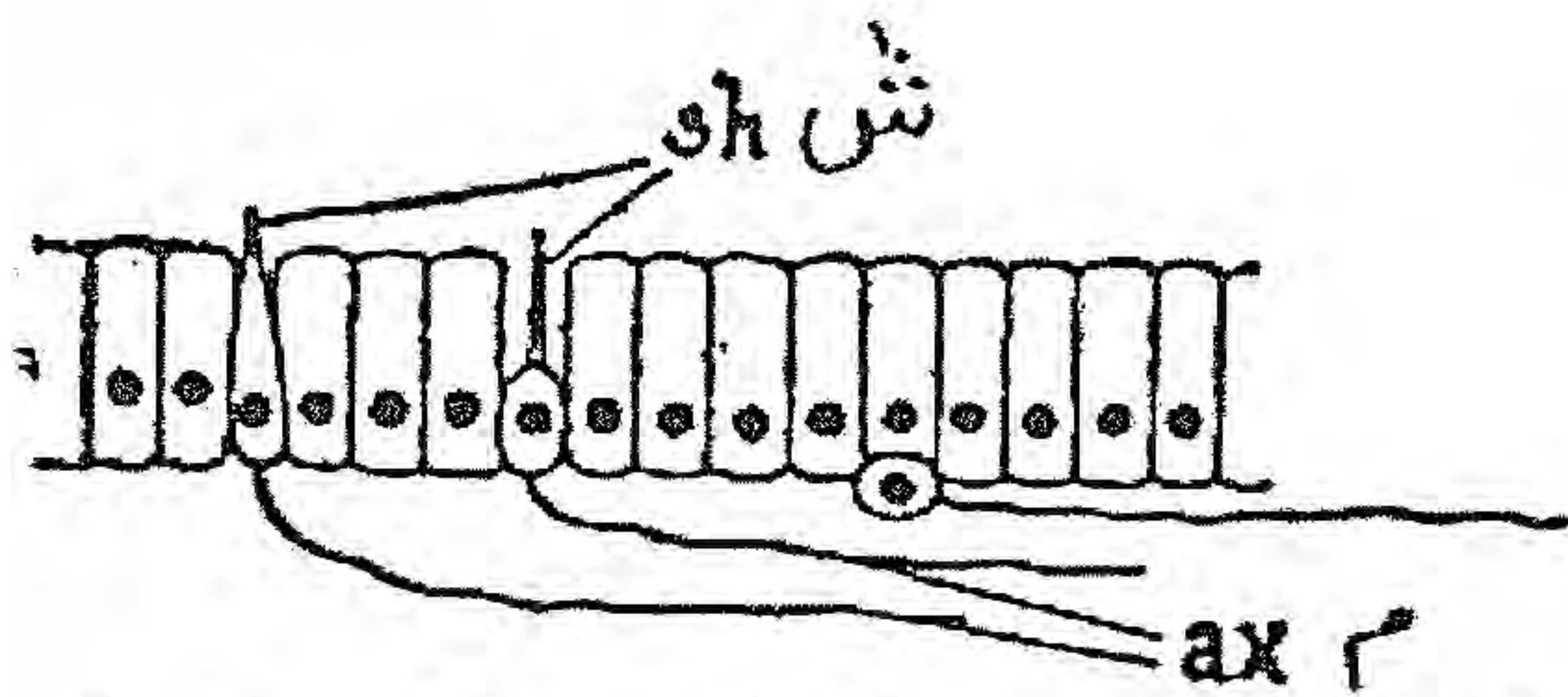
العدم الصرف ، بل فى استجبايع الآثار وإضافة بعضها الى بعض ثم توزيعها . »

عند ما تعرض الخلايا العصبية فى حيوانات كالاسماك الهلامية Jelly fish للبحث

تحت المجهر — الميكروسكوب — بأقصى قوات الكشف فيه ، يتيسر لنا ان

نقف على كل حلقات التدرج التي تربط بين خلية إيثيلية حساسة ، وبين خلية عصبية . فقد نجد مثلاً خلايا لكل منها طرفان قابل وناقل في حين أن هيكلها يكون محصوراً بين خلايا إيثيلية متجاورة . وهذه حالة لا يمكن أن نترك في أذهاننا هنة من الشك في أن كل خلية عصبية يجب أن تعتبر ، كما تعتبر الخلية العضلية والخلية الحساسة والخلية الغدية ، مجرد صورة مهذبة نشأت بالتحول عن خلية إيثيلية عادية ، لا أقل من هذا ولا أكثر .

نرجع بعد هذا إلى الكلام في مثالين آخرين من الخلايا لا يمكن أن نعتبرهما من الصور المتحولة بالنشوء عن الخلايا الإيثيلية . وهذان المثالان هما :



ش ٦ — يمثل التغير التدرجي الذي يقع على خلية إيثيلية لتصبح خلية عصبية (م) محاور (ش) شعرات حساسة بمثابة تكوين مبدئ لخلية عصبية

أولاً - خلايا الدم والهيكل الداخلي ثانياً - الخلايا التناسلية .

ولامرية في أن القارىء الذى

لم يلم بشيء من مبادئ علم الحيوان

يتولاه العجب إذ نجتمع بين الدم

والهيكل العظمى . أما كونهما

متمقارين مترابطين في الصلات الحيوية ، فاحدى العجائب التي كشف عنها علم الحيوان الحديث القائم على الاساليب العلمية .

ان أبسط المثل الذى يتكون منها هيكل داخلي عبارة عن أفرار تزداد أو تقل

صلابته بحسب الحالات ، يفصل بين طبقتين إيثيليتين . وتقع على مثل هذا

الهيكل في المخلوقات الشبيهة بالاخطبوطيات البسيطة التي نجدها عالقة بالاعشاب على

الشواطىء البحرية . غير أن صفات هذا الغشاء القاعدي **Basement membrane**

كما يدعى اصطلاحاً ، تختلف اختلافاً بيناً فتتدرج من غشاء رقيق مرن ، الى كتلة جيلاتينية

كثيفة شبيهة بالسوائل ، كما نجد في الاسماك الهلامية . فاذ أخذ الجسم الصورة

الاخيرة الفيناه يتكون من خلايا حرة غير مترابطة ، في مستطاعها أن تأتى بحركة

أميبية بطيئة . وهذه الخلايا تتبرعم — تتولد — من الخلايا الإيثيلية ، ولكنها

تختلف عنها في الصفات اختلافاً كبيراً . فانها تأخذ صورة أقراص صغيرة من

البروتوبلاسم تنشعب منها الزوائد النمائية التي تكون كالاصابع أو كالشعرات من

كل نواحيها . والظاهر أن هذه الزوائد هي من طبيعة الانبعاثات التي نجدها في

السيتوبلاسم التي بها تستطيع الحيويونات الصغيرة كالاميبا أن تتحرك (ش ٣)

ولكن تظهر هذه الخلايا في كثير من الحالات كأنها ثابتة غير متحركة ، ويتصل بعضها ببعض بنهايات زوائد النخاعية ، كما لو كانت شبكة تامة الاوصاف .

وعلى طول جوانب هذه الزوائد

النخاعية المتصلة ، تترسب الياف كثة

وبذلك يتكون هيكل شبكي من

الالياف (ش ٧) ومن مثل هذا

الهيكل اللينى تتركب عظامنا

وأوتارنا العضلية **Tendons**

كذلك نعث في دمنا على خلايا

كذلك التي أتينا على وصفها أي

« الخلايا البيضاء » أو الكريات

White corpuscles « البيضاء »

وقد تناولها كثير من الكتاب بالوصف والبحث في السنين الأخيرة . وهذه الخلايا

تعيش متحركة في « مادة » سائلة ، هي الدم . وهي بمثابة « الهيكل » الذي تكونه

الخلايا الاولى . وفضلا عن هذا ففي هذا السائل — الدم — تكمن القوة التي تكون

الياف فيها نفس الاوصاف الجوهرية التي تتصف بها الياف الاوتار العضلية ،

وهذه القوة انما تنشط الى العمل في حالة وقوع جرح يتعرض منه الدم المتدفق الى

الهواء . فان هنالك تتكون كتلة متشابكة من الالياف تدعى اصطلاحا « الخثرة » **Clot**

أما « الخلايا التناسلية » — **Reproductive cells** — فتلك التي يلقي بها

الآباء ، فتنتج بالنماء كائناً عضوياً آخر . وهي في البروتوزوا كثيرة الصور متعددة

الضروب ، ولكن يمكن تقسيمها في كل من البروتوزوا والمايتازوا معاً الى طائفتين :

الاولى الخلايا التي ينبغي لها أن يتحد بعضها مع بعض حتى يتيسر لها أن تنمو

وتكون خلقة جديدة .

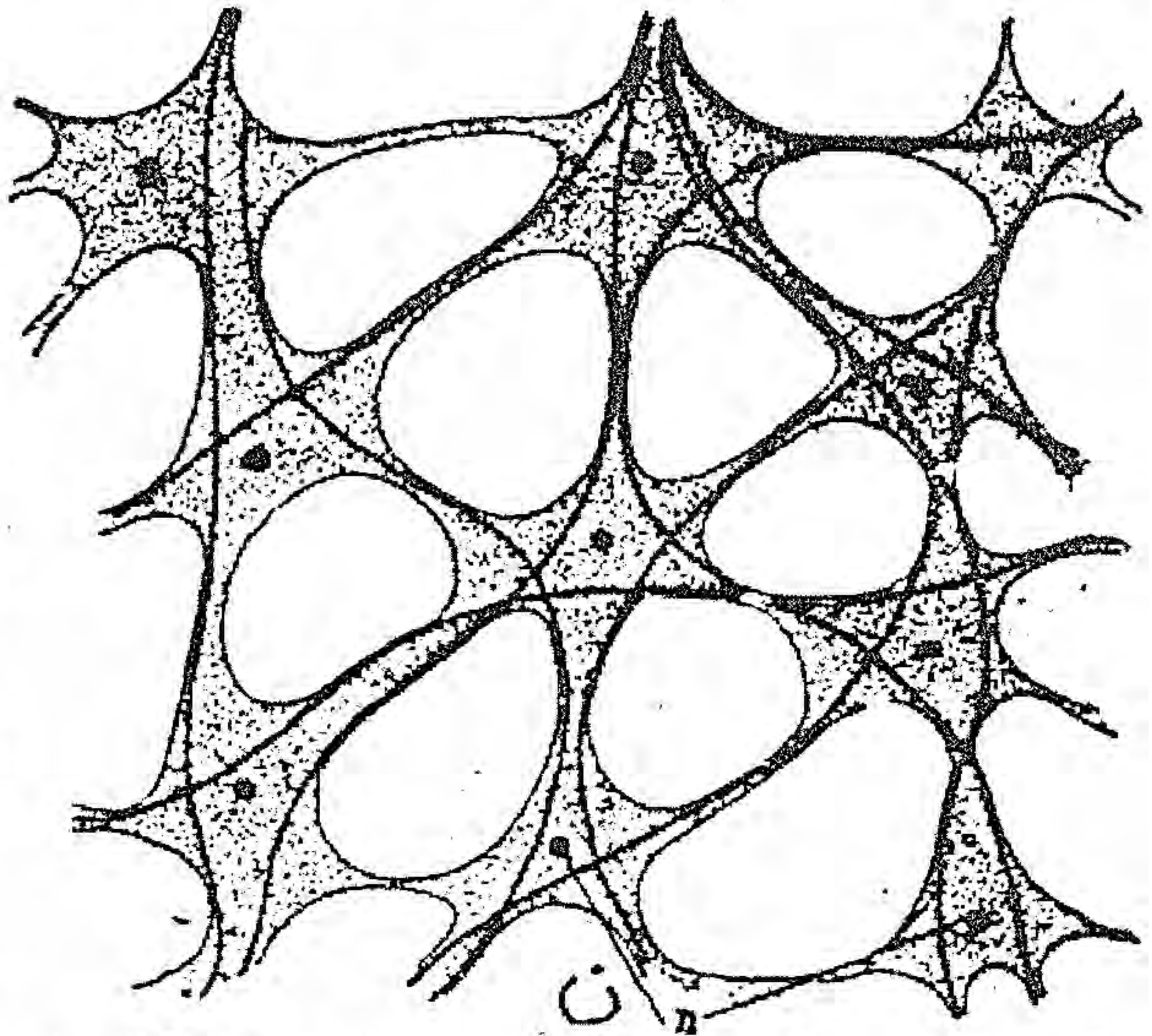
الثانية — التي يكون في مستطاعها أن تنمو بمفردها مباشرة ، من غير احتياج

الى مثل هذا الاتحاد .

أما الطائفة الاولى فتدعى اصطلاحا « الخلايا الجنسية » — **Gametes** —

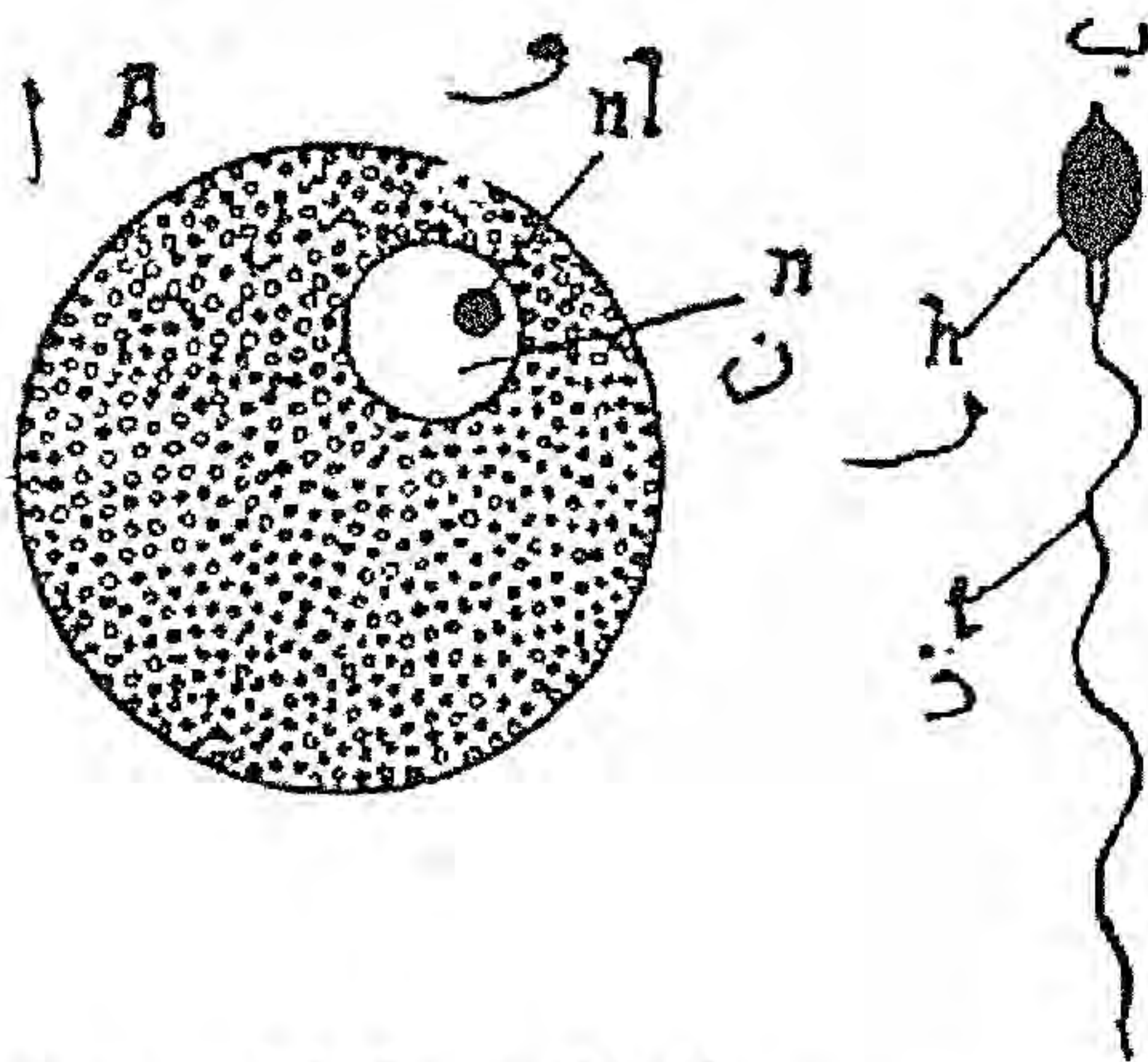
اشتقاقاً من الكلمة الإغريقية — **gamé** — التي تدل على « المزوجة » .

وأما الثانية فتدعى اصطلاحا « الحويصلات اللاجنسية » **Asexual spores** ففي



ش ٧ — يمثل تكوين الأنسجة الرابطة وفيه نجد تكويناً شبكياً من الخلايا يتصل بزوائد اشير الى المادة السيولوجية التي تحتوي عليها بنقط خفيفة أما الخطوط السوداء فتشير الى الياف الأنسجة الرابطة . (ن) أنوية الخلايا

الاجلبية العظمى من الميتازووا ، لا تحدث إلا خلايا جنسية . منها ما هو شير قادر



على الحركة وتدعى اصطلاحاً «البويضات» B
Ova or eggs ومنها ما هو متحرك
ويدعى اصطلاحاً «الحبيونات المنوية»

Spermatozoa

أما «البويضة» — Ovum —

فتكون عادة عبارة عن خلية كروية يحيط بها مخزون كبير من الميرة يدعى اصطلاحاً
ش ٨ — يمثل الخلايا التناسلية (ا) بيضة (ب)
حبيون منوى (ر) رأس الحبيون المنوى (ن)
نواة البيضة (و) نويو البيضة (ذ) ذنب الحبيون المنوى

«المج» — Yolk — يبقى مظلوفاداخل السيتوبلازما . ولها نواة كبيرة الحجم

تأخذ على غير قياس صورة كيس مستدير الشكل ، وبداخلها كرة صلبة القوام تدعى

اصطلاحاً «النويو» — Neocleolus — وأما «الحبيون المنوى» فيتكون

من رأس ليست في الواقع بشئ سوى نواة صغيرة كثيفة ، وذنب به تراهز أترجعيّاً

وهو في الحقيقة عبارة عن هذب — Cilium — أو سوط — Flagellum —

فاذا اتحد هذان الصنفان من «الخلايا الجنسية» أو كما يقال لهذا الفعل اصطلاحاً

«اقتربنا» من الاقتران — Conjugation — فإن الحبيون المنوى يندغم في

البيضة ، تاركاً ذنبه متصلاً بسطحها . أما رأس الحبيون ، وهي كما رأينا من

قبل عبارة عن نواة ، فتأخذ سمتها نحو نواة البيضة وتتحد بها . وهذه «الخلية المركبة»

— Compound cell — التي تحدث من اقتران خليتين جنسيتين ، تدعى

اصطلاحاً «المزدوج» — Zygote — وهذا المزدوج بعد زمان قصير أم

طويل على حسب الحالات ، يأخذ في الانقسام إلى كتلة من الخلايا تدعى اصطلاحاً

«الجنين» — Embryo — وهذا يمضي في عدة من الانقلابات المتنوعة

تدعى اصطلاحاً «النشؤ الجرثومي» — Ontogeny — حتى يصير بعد عدة

انقلابات كائناً عضوياً مشابهاً لأبويه .

القاعدة القياسية هي أن ينتج كل من ضربى الخلايا الجنسية أفراد تختلف

جنسيتهم . فما ينتج «البيضة» يدعى «أنثى» — Female — وما ينتج

«الحبيون المنوى» يدعى اصطلاحاً ذكر — Male — غير أنه يوجد بعض

فصائل من الحيوانات ، وهي عادة من الحيوانات التي تعيش عيشة العزلة

والانفراد ولا تكون ذات قدرة كبيرة على الحركة ، ينتج الفرد الواحد منها كلا الضربين من الخلايا الجنسية معاً . ومثل هذه الافراد يدعى واحدها اصطلاحاً « خنثى » — Hermaphrodite — وجمعها « خنثى » أما التفرق بين الذكر والانثى فيدعى اصطلاحاً « فرق جنسى »

أما وقد فرغنا من وصف أنواع الخلايا ، فالواجب علينا أن نتكلم في الطريقة التى تتجمع بها تلك الخلايا وتتحد لتكون ما يدعى اصطلاحاً « بالانسجة — Tissues — الحيوانية » تلك الانسجة التى منها تستحدث أعضاء الحيوان — Animal organs — أما كلمة « عضو » — Organ — فتستعمل للدلالة على جزء من جسم حيوان فيه كفاءة خاصة للقيام بوظيفة معينة . فرجل الانسان عضو حركة ، وعينه عضو إبصار ، وهكذا .

ان كلمة « نسيج » — Tissue — مشتقة الاصل من « قطعة من قماش » وهذه كلمة قد تستعمل فى اللغة الانجليزية لتؤدى نفس المعنى (وكذلك الحال فى لغتنا العربية المجيدة) . وأول ما استعملت هذه الكلمة فلتدل على تركيب شبكى من الخلايا أو الالياف ، منه تتكون قاعدة الهيكل العظمى ، وهذا التركيب الشبكى يدعى اصطلاحاً « النسيج الرابط » — Connective tissue — فى حين أن تقاطع الالياف فى الوضع يشابه تمام الشابه تقاطع الخيوط التى يتكون منها ثوب أو قطعة من القماش . وكما تحيط الانسجة الرابطة بكل عضو من أعضاء الجسم ، زهى كذلك تفصل بين الاعضاء المختلفة . والحقيقة ، كما قال هكسلى ، اننا اذا استطعنا أن نتصور أن كل الاعضاء التى يتكون منها جسم حيوان ما قد تحللت بعضها من بعض ، فان أجزاء كاملة منها من المحقق أن تبقى حافظة لحياتها بفضل الانسجة الرابطة . فاذا لقحت المادة الاصلية للانسجة الرابطة وهى التى تحيط بالالياف والخلايا ، بالاملاح الكالسية — Calcareous salts — فانها تنقلب إلى ذلك الشئ الذى نسميه اصطلاحاً « عظم » Bone

على الرغم من ملائمة كلمة « نسيج » Tissue ليوصف بها تجمع الخلايا ومنتوجاتها التى منها يتكون الهيكل ، فانها لا تصف « جموع » الخلايا الابطيلية وصفاً تاماً كاملاً . ومع هذا فان هذه الكلمة تصرف فى علم الزولوجيا لتدل على الخلايا المتشابهة ، ولهذا نقول الانسجة الابطيلية والانسجة العصبية والانسجة

العضلية والانسجة الغدية ، وهكذا .

فالانسجة الابطيلية تتكون من صفائح أو رقائق من الخلايا الابطيلية ، ولا تكون في كثير من الحالات أكثر سمكاً من ضخامة خلية واحدة . وقد لوحظ في الغالبية العظمى من الحالات أن كل خلية إنما تتصل بالجوارها من الخلايا بواسطة معابر أو جسور من السيتوبلازما ، فإذا كان النسيج أكثر من طبقة واحدة في السمك ، فإن أعرق طبقة من هذه الطبقات هي التي تكون في حالة من الصحة والنشاط والنماء كاملة . أما الطبقات الأخرى فتكون في حالة انحلال أو حالة موت ، وأن مادتها السيتوبلازمية تكون آخذة في التحول تدريجاً إلى إفراز ميت لا حياة فيه . أما مثال ذلك فطبقات الخلايا التي تكون البشرة **Epidermis** في أجسامنا . فإن قليلاً من التأمل ودقة الملاحظة كاف لكي يرينا لماذا يقع هذا الأمر . فإن البروتوبلازما من أجل أن تحتفظ بقسط وافر من قوة الحياة ، يجب أن تظل في اتصال دائم بالوسط الذي يغذيها دائماً بالأكسجين ووجود عدة طبقات من الخلايا يتحتم معه أن لا يتمتع منها بهذا الاختصاص سوى طبقة واحدة هي الأكثر غوراً من السطح .

وتتكون الانسجة العضلية — **Muscular tissue** — من حزم من الألياف العضلية وتكون في أغلب الحالات متجاذية الوضع في اتجاه واحد ، حتى أن القوى التي تحدث بانقباضها تؤثر في اتجاه بعينه . ومثل هذه الحزم تدعى اصطلاحاً عضلة **Muscle** يحيط بها « غلاف » من الانسجة الرابطة يدعى اصطلاحاً « اللفافة » **Fascia** في حين أن كل ليفة من الألياف التي تكون العضلة تنفصل بعضها عن بعض بنسيج رابط يتخال ما بينهما . وليس لهذه القاعدة من شواذ إلا في الانسجة العضلية التي تكون القلب في الإنسان والحيوانات العليا فقد حقق أن الألياف العضلية إنما يتصل بعضها ببعض بمعابر من البروتوبلازما .

وتتكون الانسجة العصبية **Nervous tissue** مبدئياً من شعب من الخلايا العصبية متقاربة الوضع ولكن لا يتصل بعضها ببعض . وقد يقع في كثير من الحالات أن تجري « المحاور » **Axons** في كثير من الأعصاب والمراكز العصبية **Neurons** متجاذية حتى تكون حزمة تدعى اصطلاحاً نصب **Nerve** بيد أن محوراً مفرداً يظل باقياً ضمن غلافه الخاص ، بحيث لا يتيسر لنا أن نتحقق أصله

يدعى اصطلاحاً ليفة عصبية **Nerve fibre** — أما هيكل المراكز العصبية فينتظم في كثير من الحالات في صورة ركام يدعى اصطلاحاً عقدة **Ganglia** — اشتقاقاً من الكلمة الاغريقية **Ganglion** أى عقدة كما أن الوسائل التي تربط بين الالياف العصبية تدعى اصطلاحاً « الاوصال » **Commissures** لقد رأينا من قبل أن الخلايا الغدية تكون في كثير من الحالات عبارة عن غدد مكيفة بالنشوء عن الخلايا الابثيلية . على هذا يستتبع تعييناً أن تكون الانسجة الغدية عبارة عن أنسجة ابثيلية مكيفة تكييفاً ما . على أن أكثر الحالات المشاهدة تدلنا ، كما رأينا من قبل ، على أن النسيج الغدى إنما ينتظم في صورة طبقات من الخلايا الابثيلية ، تكون بمثابة جدران لا ناييب ما . وان مجموعة من هذه الاناييب ، تحاط من جهة ، ويفصل بين بعضها وبعض من جهة أخرى ، بأنسجة رابطة ، هي في الواقع المثال الاعلى للانسجة الغدية ونجمل القول في أن الخلايا التناسلية بذاتها كثيراً ما تنتظم في صورة أناييب او أن مجموعة من هذه الاناييب بما فيها من الانسجة الرابطة التي تحفظ قوامها ، تكون ما يدعى اصطلاحاً « بالأعضاء التناسلية » **Reproductive organs** ويجوز لنا أن نسميها « بالانسجة التناسلية »

عن ليالى دؤوموسيه للدهشان

آلهة الشعر

أيا قلب جارت عليك النوب	وجرت اليه الامانى التعب
لم العود مستأخراً دائماً	الى وفيم اعترمت الهرب
وعهم تفتش ان لم تحن	لنيل المني فرصة تذهب
وما أنت تحمل ان لم تكن	حملتك الهم فوق النصب
وما أنت تعمل أن تباعد	وبى وحشة للضحى في وصب
لأنك تتبع صفر الاما	نى فى الليل بالبرق لما خلب
فلم يبق من ممتعات الحيا	ة لتدركها ان حدت الطلب
سوى قارص اللوم فى حينا	وعتب القبيل اذا ماعتب

احسان

مأساة مصرية تلحينية ، وإن شئت فقل دراما أوبرا كوميديا تمثيلية ، هي شعر منشور ، أو نثر منظوم ؟ هي كل شيء ، ولا شيء .

سئل فولتير مرة رأيه في الامبراطورية الرومانية المقدسة فقال : انها ليست امبراطورية وليست رومانية وليست مقدسة . وكذلك الحال اذا سئلت رأيي في هذه المأساة الاوبرا الدرامية الكوميدية التمثيلية المنظومة نثراً ، المنشورة شعراً قات : انها ليست مأساة ولا دراما ولا أوبرا ، بل ولا شيء . كما أنها ليست بنثر ولا شعر ولا رجز .

تقع هذه المأساة المصرية التلحينية في ثمانية وثلاثين صفحة من القطع المتوسط ، ولكنك تجد بين يديك كتاباً يقع فيما لا يقل عن مائة وخمسين صفحة طويت دفتاه على تصدير ثم مقدمة للناشرين ، وهم من لا تعرف من أعضاء جماعة تدعى رابطة الأدب الجديد الذي يعد الاستاذ ابوشادي أحد أعضائها ، قيل فيها بلسان الرابطة انها — تهنىء المؤلف « بهذه الزعامة الادبية والفتح الجديد في سبيل وعر غير مطروق بينما أساتذته ما يزالون يعبثون بصنوف من الالهو النظمى التقايدى وان اختلفت أسماؤه ، وترجو أن يكون في هذا المثل العالى من الغيرة الادبية والقومية خير ما يحتذيه شعراؤنا النابهون » — ثم فصل في موضوع القصة جاء فيه : « ولم تمنع ذلك التقاليد الارستوقراطية حتى ذلك العهد » — أى فى مصر سنة ١٨٧٦ م — فى حين أن الحقيقة انه لا استقرار فى مصر بل فى مصر أغنياء وفقراء ، والكل شرع من حيث المجد العائلى لا فرق فى ذلك بين حاكم ومحكوم . ثم قطعة فى الشعر والمسرح بقلم الاستاذ لطفى جمعه جاء فيها كلمة « قصيدة إبيقية » Epic وجملة بدأها بقوله « وكثيرة من القصص الغنائية قائمة على قصص خرافية » ثم رمانا من بعد ذلك بعلماء « الفولكلور » ولا أدري لماذا لم يترجم إبيقية وفولكلور مع ان معناهما معروف متداول فى اللغة العربية . ثم قال فى « جوته » انه الشاعر العظيم ذو العبقرية الكونية Universal المطلقة . ولست أدري ما هي العبقرية الكونية ؟ ولعله يقصد العامة المتعددة النواحي . ثم فصل فى الشعر الحى

ونزعة التجديد للجدوى وصف فيه القصة بأنها « تأليف جرى في الأدب العربي لأنها مثال لأرقى الدرامات الشعرية التاجينية التي يشع منها التفكير والعاطفة كما يسمع الروح الفنى » وأن الفنان الكامل الجدير بالاحترام والاتباع لابد أن يكون فيلسوف النزعة « يريد فلسفى النزعة » وأن المؤلف قد ثار على مقاييس الحكم التقليدى المتيقة المبنية على المعارضات والمناظرات ولم يعترف إلا بالرأى الزيه والشعور الصادق والفكر المستقل والاثربائى المجدد القرين للابداع المغذى للمشاعر الانسانية المهيب بها الى الامام والى العلاء والى الحرية « ولو أدهج الكاتب فى جلته هذه قوله الشيخ حمزه فتح الله رحمه الله « أشكوك كوك كى تنكف » لسارت « الاثر البائى المجدد القرين للابداع المغذى للمشاعر » وأن المؤلف « بث روح العلم والحقيقة الفنية الجميلة فى الشعر بعد أن كانت روح الاوهام والاكاذيب الضالة » يريد المضلة أو المضالة « والمبالغات السقيمة هى الغالبة » ثم انتهى إلى بيت القصيد فقال فى المؤلف انه « الآن حامل لواء هذا المذهب » ولست تعرف أى مذهب يريد « من الشعر العربى » وأنه « عد بجدارة شاعر الشباب الاول » — بعد استئذان الاستاذ رامى — « بل وانه شاعر النهضة الفكرية الوطنية » وانه « جدد فى الشعر العربى روح الافتتان بالطبيعة » إلى غير ذلك من أمثال هذه العبارات التى لا تدل على شىء إلا على أن الاستاذ ابوشادى قد درس نفسية الجماهير دراسة عرفته بحق أن التهويش خير وسيلة للظهور خادعاً أو مخدوعاً ثم تقع على قصيدة مدح للشاعر احمد محرم : قصيدة مرسله مدحاً بلا تحرز ولا معنى، والشعراء يتبعهم الغاؤون . اذ كيف يستحل احمد محرم أن يضع قصيدته تلك فى مدح المؤلف بعد أن يدعى بانه قضى على نزعة أمثال احمد محرم فى الشعر العربى ؟ ثم فصل فى تمثيل القصة وأشخاصها وآخر فى نسق التمثيل ثم تختتم القصة بنظرات وملاحظات وفصل ختامى كتبها الاستاذ المؤلف وأحد النقاد تستغرق بقية صفحات الكتاب

ولا أريد الآن أن أعرض للقصة ذاتها من حيث الوضع القصصى ولا التمثيل بل أريد أن أنظر فيها نظرة عجيلى لانقدها من الناحية الادبية الصرفة

جاء فى ص ٣٨ مانصه

أنا ما شككت، وهل أشك بربى وبمرتقى أُملى ونور ظلامى !!!

فما هو مرتقى الامل ؟ وما هو نور الظلام ؟ أما أنا شخصياً فلا أعرف من نور الظلام الا انها حارة قدرة بها محكمة مصر الكبرى الشرعية .
ثم يقول في ص ٣٩

واريد منذ اليوم بث ضرائتي لسنائك ، فهو مثابتي وقوامي
فكيف يكون سناها مثبته وكيف يكون قوامه ؟ الا أن يكون الشاعر من طبيعة غير طبيعة البشر . وجاء في الصفحة ذاتها

بددت أشجاني بحبك مثاماً ضمدت من جرح الفؤاد الدامي
ولا أدري كيف يبدد الحب الاشجان وهو بائنها ؟ وكيف يضمد جراح القلب وهو مدهيها ؟ وقال أيضاً

هاتي غناءك كيف شئت فاني أحياء بما يوحى هواك الشادي
ولعل المؤلف يطلعنا يوماً كيف يشدو الهوى وكيف يترنم على مختلف الانغام الموسيقية ؟ ولست أدري ماذا يقصد من هذه الاغنية :

اسمع اذن يا حياتي عهد الفؤاد
يهـ واك حتى مـمـاتي رغم البعاد

فان هو عهد الفؤاد الذي يتكلم فيه ؟ ومن الذي يهوى ؟ لا تدري .
وماذا يعني بقوله :

لا تشكني يا غرامي واشك الغرام
يا بى الغرام اتهمى فيك الملام

ثم قوله :

رددى سحرك النشيد الجميلاً اننى ادهوى سمائك جيلاً
بل إلى موعد الخلود ولو انـ نى أراك الخلود قربى جيلاً
وأى معنى أشد من هذا غموضاً ، أو مبنى هو أكثر من هذا ركابة ؟
وتالله ان الخلود لجميل سواء أكان بقرب احسان أو بعيداً عنها . ومما يضحك قوله :

انظر حبيبي على من بالباب يطرق والدى !!!!

مرحى بشاعر الشباب الاول . مرحى به ! وهل رأيت كيف يكون الزام القافية ؟ كنا في صباننا نقول في بيت بن الوردى

ليس يخلو المرء من ضد ولو حاول العزلة في رأس الجبل

انه لو قال في رأس القافية لكان أولى به . فكيف بنا اذا سمعنا اليوم شاعر
الشباب الاول يقول :

ولسوف اقرؤها عليك فانت وجداني وعيني
فاليك مافيها من الـ خبر الاليم المر عني
افرايت كيف تكون العين معطوفة على الوجدان ، كما لو كنت تقول مثلاً
السماء والحذاء .

ثم أرجع إلى قوله :

يا صديقي وأنت خير صديق انت من يرتجى بخطب وضيق
كن شجاعاً كما عهدتك غلاً بأعلى اليأس لاتكن كالرفيق !!!
وهذا الشعر على الرغم من ضعفه ، فان بين المقطعين فرقاً يدل على المعجز عن
مسايرة مقتضى الحال . ثم قوله :

كلها صورة من الخطر المحـ دق بالجند بين النفي مضيق
فقضى سيد البلاد بانـ تد عى إلى الحرب فلتجب يا صديقي
وأنا مثلك المجاهد لكن أنت أهل لكل مجد أنيق
أنت زين الشباب والبعديشـ قينا ولكن أراك عون الرفيق
واراك المثال يتبعه الـبـ ـ طال بالفخر للاباء الحقيقي
وهنا نسأله أين الالفين من المضيقات التي تقع في بلاد الحبشة ؟ وما هو
المجد الانيق ؟ الا أن يقصد به مجداً حسن البزة والهندام . وما هو الالاء الحقيقي ؟
فليفتنا سامحه الله . ثم يقول :

اكرم بوحيك يزجيني لما يجب هيات وحيك عن عيني محتجب ؟
وكيف محتجب الوحي عن العين وهو ينزل على القلب ؟ على اننا نختم النقد
بشيء يسرى عن القارئ بعض مالتى من مرارة . قال الشاعر الشاب أو شاعر
الشباب الاول :

ياسيدى العم مهـلاً ويأخى كن شجاعاً
وكن لاحسان عوناً مراعيـاً ما استطاعاً
وأنت يا بنت عمى يامن جبتنى شعاعاً
يامن أراها ملاكاً بينا يراعى يراعى

والفعلان الاخيران أولهما مبنى للمعلوم والثاني للمجهول . فافهم معنى أيها
القارئ من ذا الذي يراعى ما استطاع والكلام في صدر البيت لمخاطب وفي عجزه
لغائب ؟ وكيف تحبوه بنت عمه شعاعاً ؟ وما هو المعنى المقصود ؟
على اننى لا اكذب القارئ فقد تعثرت في هذه القصة حتى عجزت عن
اتمامها ولم أعجز قبل اليوم عن اتمام كتاب بدأت في قراءته فمعدرة اذا وقفت بالنقد
عن هذا الحد فذلك كاف ، ولعل شاعر الشباب الاول لا يفض ورهطه علينا
غضبة مضرية ، الا أن يكون من أثرها أن يخرج لنا شيئاً يقرأ . فاذا كان هذا
فليغضب ما يشاء وكيف شاء « ناقد »

الانتحار كمؤثر اجتماعي

مراجعات عن الاستاذ جورج شرتون هيل

١ — العلامة جورج شرتون هيل مؤلف انجائزى ذا الرصيت في عالم الاجتماع
ويعتبر كتابه « الوارثة والانتخاب في النظام الاجتماعى » حلقة من تلك الحلقات
الكثيرة التى طبق بها متأخرو العلماء مذهب العلامة شارلز روبرت داروين على
فروع العلوم الحديثة . وما رأيت فى مجموعة الكتب التى أسعدنى الحظ بالعثور
عليها من مؤلفات الانجليزى فى تطبيق مذهب داروين على النظام الاجتماعى امتع
من ثلاثة كتب : أولها — كتاب سبنسر « مبادئ النظام الاجتماعى » وهو يعتبر
أول رائد لهذا الميدان انفسيح . وثانيها — كتاب « التطور الاجتماعى » للاستاذ
الكبير بنيامين كيد . وثالثها — كتاب شرتون هيل الذى نحن بصددده الآن .
ولا أنسى أن أنبه القارئ الى كتاب آخر للعلامة كيد هو فى الواقع متمم لكتابه
التطور الاجتماعى . ذلك كتاب « علم القوة » الذى نشر بعد كتابه الأول
بزمان قصير .

على أن الفرق بين هؤلاء المؤلفين الثلاث ينحصر فى وجهة النظر التى انتحاهها
كل منهم فى علم الوراثة . أما العلامة سبنسر فالظاهر من كل ما كتب أنه مضى

معتنقاً بمذهب داروين في الوراثة المعروف في عالم البحث بمذهب « وحدة التناسل »
فإن أول مذهب عملي في الوراثة لم يذع إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، عندما
كان سبنسر في شيخوخته منقطعاً عن العمل العلمي . هذا المذهب هو مذهب
غريغور جوهان فون مندل . ومن الثابت أن مندل لم يشتغل بالوراثة إلا بين عامي
١٨٤٧ — ١٨٦٨ ، ولم يذع مذهبه إلا بعد ذلك بفترة من الزمان . أما الاستاذ
بنيامين كيد فلست تعرف من كل ما كتب أي المذاهب في الوراثة يعتنق ، ذلك
لأنه أخذ في تطبيق مذهب النشوء من غير أن يعير مسألة الوراثة انتباهها . بل
مضى يطبق القواعد التي وضعها داروين في كتابه « أصل الأنواع » على وجهة
نظره في الاجتماع من غير أن يناقش قواعد داروين أو يناقش شيئاً من مكملاتها
التي تناولتها الابحاث الحديثة من بعده . أما « جورج شترتون هيل » فإنه من
مؤيدي مذهب « ويزمان » في الوراثة القائل بالبلاسم الجرثومية . وهو مذهب قريب
الصلة جداً بمذهب داروين في وحدة التناسل .

ونيس من شأننا أن نشرح المذاهب المختلفة في الوراثة ، بل إننا لم نقدم بهذه
المقدمة إلا لتعرف الباحث شيئاً من المبادئ التي انتحاهها ثلاثة من كتاب العصر
الحديث لدى نظرهم في الاجتماع من ناحية النشوء والارتقاء . لهذا نمضي في
الكلام في الانتحار كمؤثر اجتماعي تايخيصاً ونقداً عن العلامة شترتون هيل .
على أني قد شرحت مذاهب الوراثة الحديثة شرحاً موجزاً في كتابي « ملقى السبيل »
الذي ظهر منذ زمان وجيز فليرجع إليه من أراد . غير أني لا أود أن تمر هذه
الفرصة دون التنوية بكتابين آخرين لهما بتطبيق مذهب النشوء على علم الاجتماع
أكبر أصرة . هما كتاب العلامة وولتر بيجهوت « الطبيعيات والسياسة » وكتاب
البرنس كروبوتكين « التعاون المتبادل كعامل نشوئي » فإن هذين الكتابين رغم
صغر حجمهما ، قد أديا للعلم النشوئي أكبر خدمة عرفها العلماء في أوائل القرن
العشرين ونهاية القرن التاسع عشر

قسم العلامة « شترتون هيل » كتابه « الوراثة والانتخاب في النظام الاجتماعي »
إلى ثلاثة أشرطة : خص الشطر الأول منها بالكلام في « نظرية تسلسل الإنسان
وأصله » وخص الشطر الثاني بالكلام في « الباثولوجيا الاجتماعية » ويعني بذلك

« تحليل الأمراض الاجتماعية » والبحث في أسبابها ونتائجها . وخص الشطر الثالث بالكلام في « الحالات الواقعية في الانتخاب الطبيعي » . أما السبب الذي حدى بنا الى تخصيص الكلام والبحث في ناحية معينة من نواحي الشطر الثانى من الكتاب فراجع الى أننا انتقينا من الكتاب أسهل أجزائه لنبدأ بها أولاً ، ولأن ذلك الجزء من الكتاب هو الذى يهم جمهور القراء ثانياً .

وكان من الواجب علينا أن لانمضى فى هذه المراجعات قبل أن نلم بطرف موجز فى تاريخ الفكرة فى الانتحار . فان كثيراً من الفلاسفة الأقدمين قد تناولوا هذه الظاهرة الاجتماعية بتأملات فلسفية أخذت تنتقل مع الزمان من شعب الى شعب ومن مدرسة الى أخرى ، حتى أسلم بها القدر الى الرواقين فى تصور المدنية الرومانية ، وهناك ازدهرت الفكرة فى الانتحار ، حتى لقد أجازها أكثر الفلاسفة الرواقين فى روما على قاعدة أن الانسان حر فى أن يتصرف فى حياته التى هى ملكه وحده . وما وصلوا الى هذا الحد القصوى من التطرف الا مسaire لمقتضى فكرتهم الاصلية فى حرية الاختيار . غير أننا إذا أردنا أن نلم بهذه الآراء اجمالاً أو تفصيلاً فى هذا الموطن ، تورطنا الى الكلام فى أشياء ليس هذا موضعها . ولعلنا نستطيع العودة الى الكلام فيها بعد أن تفرغ مما تصدينا له من البحث .

بدأ شرتون هيل كتابه بالكلام فى الحقائق التى يقوم عليها علم الوراثة ومذهب الانتخاب ، بانياً أبحاثه على المستكشفات الحديثة فى علم الحياة ، وبالجملة على ما كشف لويزمان من الحقائق العلمية فى مذهبه المعروف فى البلاسا الجرثومية .

ولقد أظهر بما لا يحتمل الشك أو الريب أن أبحاث — البيولوجيا — علم الحياة تنزع آناً بعد آن الى الاعتماد على مذهب الانتخاب باعتباره نظاماً من النظم المؤثرة فى النشوء العضوى وغير العضوى . وهو يعتقد بان للعلامة ويزمان من الأثر فى تحديد التصور العلمى القائم من حول مذهب الانتخاب مالا يقل عن أثر العلامة داروين فى وضع هذا المذهب العظيم . لأن داروين ان كان قد طبق مذهب الانتخاب على الانواع الحية ، وأثبت أنه من أبين العوامل فى نشوئها وتطورها فان ويزمان قد أثبت بأبحاثه أن الانتخاب لا يقتصر أثره على الانواع اذ هى تتكون من أفراد ، بل يتناول بتأثيره الكبير تلك الدقائق الاولى البسيطة الكائنة فى

البلاسم الجراثومية التي يتكون منها كل فرد من الافراد . ولقد أظهرنا من بعد ذلك على أن للوراثة والانتخاب فلسفة علميا ، أئين من فلسفة التطبيق الطبيعى أثراً وأشد فعلا . فان هذين المبدأين على الرغم من أنهما يريانا أن هنالك معركة من التناحر على البقاء مستمرة الفعل دائماً التأثير ، فأنهما قد أثبتا لنا عملياً أن أى كائن عضوى لا يمكن أن يحتفظ ببقائه فى الحياة نازعا الى درجة عليا من درجات النشوء الا اذا تعرض خلال حياته لمؤثرات الانتخاب على قوتها وحدتها . فاذا أثرت حالات ما فى كائن عضوى تأثيراً جعله يفر من معركة التناحر على الحياة ، وبالتبعية لذلك يفر من الميدان الذى تؤثر فيه نواميس الانتخاب ، فما لاشك فيه أن ذلك الكائن ينزل إلى درجة هى لدى الواقع أحط من الدرجة التى يبلغ فيها النشوء اقصى مبالغه ، تلك الدرجة التى لا بد من أن يصل اليها إذا ما ظل خاضعاً لمؤثرات تلك النواميس . ولما كان التراجع معناه فى الطبيعة الفساد والانحلال بتأثير الحالات القائمة فى عالم الحياة ، فان هذا النكوص الذى تنكصه بعض الافراد لا يكون له من معنى ، اللهم إلا الانقرض التام فى النهاية .

أما إثبات ما أتى به العلامة «هيل» من رأى وتحقيق أنه مطابق لما يقع فى الطبيعة تماما ، فظاهر جلى اذا وعينا مجمل الحالات التى تنشأ تحت تأثيرها صور التطور العضوى فى جملتها . ولقد أثبت المؤلف فى الفصل الأول من كتابه أن للنشوء أربعة عوامل كبرى تحكم فى كل ما يوجد فى الطبيعة العضوية من صور النشوء : الاول قابلية التغير ، والثانى الوراثة ، والثالث الخصب فى الانتاج لاكثر من حد الكفاية ، والرابع بقاء الاصلح بتأثير الانتخات .

من الظاهر أن سنة بقاء الاصلح تتضمن بالضرورة فكرة الخصب فى الانتاج لا بعد من حد الكفاية . لأنه إذا تهيأت للاحياء فرصة وجود المكان الذى يسعها والغذاء الذى يكفيها إلى درجة يتسنى معها لسكل العضويات التى تولد أن تعيش فى دعة وسلام ، فما لاربية فيه أن معركة التناحر على البقاء تضع أوزارها ، وبذلك لا يكون فى الطبيعة من هو صالح أو من هو أقل صلاحية للبقاء من غيره ، مادامت مطالب الحياة فوق حاجة الجميع . أما إذا نتج مائة من الافراد فى بيئة لا يسع فرائدها ، ولا يعضد غذاؤها ، أكثر من خمسين فرداً ، فان الخمسين فرداً الباقية لأبد من أن ينتابها الهلاك ويمضى بها القدم . أما الخمسون فرداً التى يقدر لها

البقاء فانها لا تبقى إلا لانها أقدر من الخمسين التي تفنى على مجالدة الاغصير ،
أو لانها أمتن بنية أو أنسب تركيباً من حيث الكفاية الطبيعية للبقاء . وكما أن
الحال على ما وصفنا بين الافراد التي ينتجها نوع بعينه ، فهي كذلك بين السلالات
التابعة لأنواع مختلفة ، أو بين الأنواع المتباينة المستقل بعضها عن بعض
استقلالاً نسبياً .

ان القاعدة الطبيعية هي أن ينتج من الافراد عدداً زائداً عما يستطيع البقاء ،
ولا يبقى من الافراد إلا من يتفوق على غيره بطريقة من الطرق أو وسيلة من
الوسائل . غير أن هذا التفوق لا يضابط له ولا مهبط إلا التناحر على البقاء ، بل
أنه لا طريق لتفوق فرد على فرد أو فريق على فريق الا طريق التناحر . فكل
تباين من التباينات التي تكون مفيدة لتفوق نوع وبقائه ، تنتجها الطبيعة ليبقى
في الحياة ولتورث صفاته في أعقابها . في حين أن هذا التباين نفسه لا تسمح الطبيعة
له بالبقاء الا اذا ظل مؤدياً فائدة ما للنوع الذي يلتحق به . وليس لهذه النظرية من
معنى الا أن نقول ان النوع مادام باقياً في بيئة بعينها متأثراً بحالات واحدة ، ومادام
محوطاً بظروف غير متغيرة ، فان هذا التباين الذي يستحدث فيه يبقى ثابتاً غير
متغير . لان كل تباين يحدث في نوع من الانواع ، يتضمن بالضرورة فكرة
المكافأة بين النوع وبين البيئة التي تحيط به ، كما يتضمن فكرة أن كل فرد من
أفراد النوع الذي لا يحوز مثل هذا التباين لا بد من أن يهلك ويفنى ، لانه لا يكون
كفوئاً للبقاء في البيئة التي تحيط به .

لنرجع بعد هذا إلى مسألة أخرى ، ولنخرج بالنوع عن بيئته الطبيعية ومحيطه
الاصلي ولنضعه تحت أو اصر بيئة اصطناعية مفتعلة . أما النوع فمن الجائز أن
يبقى ويمتد بالحياة ، غير أنه لا يمكن أن يبقى الا اذا حمى من الهلاك صناعياً .
فان اخراج نوع من بيئته الطبيعية ليس له من معنى إلا الفساد والانحلال المحتوم .
في حين أن مركزه الذي يخلو باخراجه من البيئة تحتله غيره من الانواع التي هي
اكثر منه قوة وأبعد منه غلبة ، لانها من بنات الطبيعة ، اكبر معاهد التربية
وأصلحها لنشوء الغالبين .

بذلك نرى أن الحياة العضوية اذا ما خرجت عن بيئة الطبيعة التي هي مباءتها
الاصلية ، انما تنزع إلى النكوص عن المثل الاعلى الذي تكون قد بلغت تحت

تأثير تلك البيئة وحالاتها المشعبة . لهذا يجب علينا بل يتحتم ، وقد أزمعنا أن تطبق نواميس الانتخاب على النوع الانساني ، أن نبحث فيما اذا كانت الحالات التي يتأثر بها تطور هذا النوع ونشوءه ويخضع لها في أرقى صور التقدم ، هي بذاتها حالات تلائم سريان تلك النواميس ولا تصد القوى الطبيعية عن أن تتجه في سمتها المرسوم لتصل إلى غاياتها ؟ أو بطريقة أخرى ، لنرى هل المدنية الغربية قد اتبعت في نشوئها طريقاً من شأنه أن يحفظ على الانسانية مثل الكفاية العليا والمقدرة الفائقة التي لا غناء عنها في استحداث أرقى الصور التي يجب أن تبلغ إليها السلالات البشرية من الناحيتين الطبيعية والادبية ؟

إذا دخلنا عالم الانسان فان مشكلة الانتخاب تواجهنا في صورة لم نألفها من قبل عندما طبقناها على غير الانسان من صور الحياة العضوية . فان الانتخاب في غير الانسان من الانواع الحية انما يرمى — اذا سمح لنا أن ننسب إلى هذا الناموس صفات غائية في اللغة — إلى أن يبلغ بالنوع حد الكفاءة المستطاع بيولوجيا — أي من الوجهة الحيوية . في حين أن النوع الانساني انما يرمى إلى أن يبلغ به حد الكفاية اجتماعياً . ولا يقصد بالكفاية الاجتماعية بلوغ المثل الاعلى في العقلية وحدها . فان طبيعة الانسان الانفعالية ، والفنون التي هي لدى الواقع أبلغ ما يعبر لنا عن طبيعته هذه ، وعواطفه الادبية ، عامة هذه الاشياء تتكاتف معاً لتقيم ذلك البناء المشعر الذي ندعوه « صرح الانسانية الاجتماعية » فان السلالة الهندية الحمراء من الوجهة الحيوية أكبر كفاءة وأصلح للبقاء من السلالة البيضاء . غير أن الصفات الاجتماعية التي تتصف بها السلالة البيضاء قد أهلت بها لان تخرج من معمعة التناحر منتصرة غالبية . وكذلك الحال في المدنية الغربية فان الكفاءة البيولوجية — الحيوية — في أفراد أية من الجماعات المتمدينة ، قليلة القيمة اذا قيست بالصفات الادبية . أما نشوء المعاهد والنظم التي كان نتيجة للتطور الاجتماعي الذي ظل شديد الاثر في الجماعات طوال قرون عديدة متعاقبة ، فذلك ما يفخر به أهل الغرب ، وذلك ماله في اعتبار أهله أغلى القيم وأثمنها .

على أن العلامة شرتون هيل لم يفصل الكلام في الكفاية الطبيعية التي حازها

أهل الغرب ممثلو المدنية في العصر الحاضر ، فانه أشبع البحث فيها في فصول كثيرة من كتابه القيم . غير أنه إذ تناول موضوع الانتحار كمؤثر اجتماعي ، قد اضطر بطبيعة الحال إلى أن يرجيء الكلام في هذا الموضوع ، وأن يعكف على البحث في ظاهرة الانتحار ليستطيع من طريق هذا البحث أن يحكم في ناحية من نواحي النشوء التي خطت فيها المدنية الحديثة في القرن العشرين ، وهل هي تصد سير الطبيعة عن التأثير في الحالات الاجتماعية ، أم أنها تسايرها ؟ وفي الانتخاب هل هو معطل الفعل في حالات الاجتماع تحت تأثير المدنية ، أم أن له الأثر البالغ في نشوء الجماعات وتطورها في العصر الحاضر كما كان في الأزمان الفارطة ؟ هذا ما يتضمنه البحث الذي نسوق الكلام فيه الآن .

إن الذين لم يعتادوا طرق البحث التحليلي في التطبيق الاجتماعي يشكون كل الشك في أن ظاهرة الانتحار مشكلة من المشاكل التي يجب أن يعنى بها الاجتماعيون . أما الرأي السائد فقاصر على الاعتقاد بأن الانتحار ظاهرة فردية صرفة ، لا تقع إلا حيث تكون حالات من الضعف الباثولوجي — المرضى — يتناول المجموع العصبي . والاستاذ شرتون هيل أبعد الباحثين عن أن ينكر على النيورولوجيين — أطباء الحالات العصبية والباحثين في خصائصها — حقهم في أن يبحثوا ظاهرة الانتحار من ناحيتها العصبية المحضة والأمراض التي تنتاب المجموع العصبي . غير أنه يعتقد بأن هذه الظاهرة يمكن بحثها من ناحية مختلفة عن هذه تمام الاختلاف ، وبوجهة من النظر مغايرة لهذه تمام المغايرة . ومن أجل أن تبحث هذه الظاهرة من الناحية الاجتماعية يعتقد الاستاذ هيل أنه من الواجب على الباحث أن يخلى ذهنه تماماً من مسألة الميول الطبيعية التي تقصر الفرد على أن يكون ما هو ، وأن يعكف الباحث على الإحصائيات التي تجمع عن حالات الانتحار والتي تذيبها مثلاً جمعية من الجمعيات العلمية في وقت خاص . فان الباحثين في الحالات الاجتماعية لم يعيروا البحث في الانتحار على اعتبار أنه ظاهرة اجتماعية مجملة ، بعيداً عن ظواهرها الفردية ، من الانتباه والبحث إلا قليلاً . ولم يتجه البحث في هذه الظاهرة من هذه الوجهة إلا حديثاً ، حيث عكف عليه أعلام من أمثال أوتنجن ومورسيلي وليجويت ومازاريك ووستكوت وماير ، ومن بعدهم

دور كيم. الأستاذ الأكبر في جامعة باريس والذي أخذ عنه الأستاذ هيل أكثر ما اعتمد عليه من الإحصائيات .

حتى ذلك العهد الذي بدأ فيه أبحاث هؤلاء الاعلام وعلى الأخص دور كيم ، كان الباحثون يعتقدون بأن ظاهرة الانتحار ظاهرة فردية صرفة ولا علاقة لها بالحمالات الاجتماعية على إطلاق القول . حتى لقد حضر جهد الباحثين في أن يبحثوا كل حالة خاصة من حالات الانتحار راجعين بها الى حالة خاصة من حالات الميول والقواسر الطبيعية التي كان يتصف بها الفرد ، من غير أن يفكروا ساعة واحدة في العودة بالبحث في الانتحار على اعتبار أنه ظاهرة ضلالية اجتماعية . وعلى الجملة نقول بأن الانتحار قد اعتبر حالة من حالات الباثولوجيا الفردية ، وبمعنى آخر قد اعتبر مرضاً فردياً ، ولم يعن أحد ببحثه على اعتبار أنه من ظاهرات الباثولوجيا الاجتماعية .

أما الأسباب التي حملت كثيراً من الاجتماعيين على أن يهملوا البحث من الناحية الاجتماعية في ظاهرة الانتحار ، فيرجعها الأستاذ شترتون هيل إلى أصل واحد منه استمدت . وهذا الأصل هو فكرة أن الفرد إنما هو أساس الجماعة ، وأن النشوء الاجتماعي في أخص مظاهره هو لدى الواقع عبارة عن نشوء الأفراد الذين يكونون الجماعة . أو بعبارة أخرى ان الجماعة ما دامت مجموعاً من الأفراد ، فإن النواميس التي تحكم في نشوء الحياة الفردية لا بد من أن تكون بذاتها النواميس التي تحكم في نشوء الحياة الاجتماعية .

ولقد وضع العلامة مسيو تارد الفرنسي إحدى هذه النظريات التي أطلعت التطور الاجتماعي على أساس التطور الفردي . أما مسيو تارد ، كما يعرف كل علماء الاجتماع ، فذلك الباحث الذي يعتقد بأن المحاكاة — أي التقليد — هي الصفة الأساسية في كل مظاهر الحياة الاجتماعية .

يقول تارد :

« غير مستطاع بأية حال من الأحوال إذا ملو لخصا علم الاجتماع الانساني والحياة الاجتماعية أن تنبع من قواسر المحاكاة . فنضطر إلى محاكاة الغير في كل خطوة من خطواتنا وفي كل فعل نأتي به بل وفي كل ما نفكر فيه . ما لم يقع في سبيلنا ما يحبطنا نستحدث جديداً وهذا نادر الوقوع . ويحتمل إذا استطعنا أن

نستحدث ونبدع فإن في مستطاعنا أن نثبت أن أكبر ناحية من مستحدثاتنا ،
هى لدى الواقع تأليف بين أصول أو أمثلة قديمة ، وأن هذه المستحدثات تظل
مهجورة وفي جفوة عن عالم الاجتماع ، ما لم تقلد ويحاكيها الناس . فانك في العصر
الحاضر لا تنطق بكلمة واحدة ليست في حقيقتها وأصلها اشتقاق من مقاطع صوتية
يمكن الرجوع بها إلى الماضي القصي البعيد ، ولو انك غير شاعر بذلك في العصر
الحاضر ، ولكنك كنت تشعر تماماً بهذه الحقيقة في العصور الاولى . بل انك
لا تنطق بهذه الكلمة إلا على صورة تحاكي بها محيطك الذي يحيط بك وبيئتك
التي تحويك . ثم أنك لا تقوم بشيء من مراسم دينك سواء أرسمت علامة
الصليب أم سجدت لا يقوينة أم صليت ، إلا وتكون قد عدت إلى مراسيم تقليدية
ورثتها عن الأزمان الغابرة ، لم يكن لأسلافك أقل أثر في اختراعها ووضعها على
ما وصلت إليك . ثم أنك لا تنفذ أى أمر سواء أكان أمراً عسكرياً أم مدنياً
إلا وأنت خاضع لدى الواقع إلى أفعال وحركات ورثتها لتقوم بوظيفك من طريق
المحاكاة . وكذلك الحال إذا كنت مصوراً أو شاعراً فانك لا تخط بريشتك شيئاً
أو تكتب حرفاً إلا وأنت خاضع لما ألزمتك به مدرستك التي أنشأتك ، أو
بالأحرى نشأت فيها . أما قوة الابتكار فيك فعبارة عن أشياء مستجدة من مواد
أولية ، ولا بد من أن تصبح بذاتها مواداً أولية يستجملها غيرك على مدى الأزمان .
هذا رأى العلامة تارد . أما شترتون هيل فينقده من بعض نواحيه ويقرر
بعضها . نبقى على ذلك إلى ما سوف نكتب في المحاكاة وأثرها الاجتماعي خلال
هذا البحث .



نثر وشعر

لا يطلب من « الشاعر » أن يكون « فيلسوفاً » ولا أن يكون « واعظاً » ولا أن يكون « اخلاقياً » فإن كان « شيئاً » من ذلك « في طبيعة » نفسه حسن ، والا فلن يضر « شاعريته » أو « موهبته » كشاعر شيء من فقدان هذه « الصفات » ذلك لأننا نفهم من تحليل كلمة « الشاعر » انه الذي يشعر « فيصنع » ما يشعر به « شعراً » وليس على ما نعلم بين سائر اللغات كلمة « للشاعر » استوفت هذا بمقدار ما استوفته اللغة العربية . فالشاعر إذن هو الذي يحسن التعبير عن « شعوره » شعراً وقد يعبر الشاعر عن شعوره أحسن تعبير ، وقد يصف خواج نفسه أحسن وصف ، وقد يصور خطراته أحسن تصوير ، فإذا لم يستطع أن يثبت خلال كلامه « فلسفة » لأنه لم يخاق فيلسوفاً ، فما الذنب بذنبه ، وما هو مطالب بأكثر من أن يصف لنا شعوره « وصفاً صادقاً » ، فإن أحسن الوصف وإن أحسن التصوير فهو شاعر سواء أ كان في شعره « فلسفة » أم لم يكن ، وسواء أ كان « اخلاقياً » فيما يصنع ، أم لم يكن . ذلك لأننا نرتكب شططا ان حتمنا على « الشاعر » أن يكون فيلسوفاً ، ونكون أكثر شططا إن أردنا منه أن يكون « اخلاقياً » ذلك لأننا نطلب منه شيئاً قد لا يكون من معدنه أو شيئاً هو خارج عن طبيعته ، وبعيد عن مزاجه !!!

فإن أردنا من الشاعر أن يكون صادقاً في التعبير عن شعوره ، صادقاً في فنه ، فلنتركه لنفسه حراً ، يقول ما تجود به قريحته وما هو ليس بخارج عن مزاجه . ولعمري ان الشعر « فن » وليس ثمة فرق بين الشاعر والفنان . فالصور الذي يرسم لنا صورة فيجيد الرسم نحكم له بالتبريز ، لا بمقدار ما في لوحته من أخلاق أو فلسفة ، بل بمقدار ما فيها من إجادة في « الفن » فلا أعلم إذن لماذا نخرج « الشاعر » من حظيرة الفن فيما ننكر عليه من تبريز وتفوق لأنه لم ينفث لنا شيئاً من « الفلسفة » أو شيئاً من « الوعظ » فيما جاء به من شعر !!

وكم سخرت من بعض أولئك الناقدين الذين خرجت علينا بهم « السياسة

الاسبوعية» في عددها الممتاز الذي خصصته لنقد شوقي ، وقد سخرت كثيراً فيما تورطوا فيه وفيما عابوا على شوقي من أن شعره خال من « الفلسفة » أو من « الروحيات » وما شاكلها من « اشارات » ورموز مبهمه كل الابهام ، هؤلاء الذين تصدروا لنقد « الشاعر » دون أن يفهموا وظيفة « الشاعر » وما هو الفن ومعنى « الشعرية » !

وكثير منهم من عاب عليه « تملقه » ؟ أو « تقلبه » أو مجاراته للحالة الراهنة وكأنني نسوا أنه انسان وأنه ليس من شأنهم في شيء أن ينقدوا « شخصيته » وهي ملكه ؟ وليس من شأنهم أن ينظروا فيها أو يعيروها التفاتاً وانما شأنهم « وشعره » وهو من آثاره التي انما هم مطالبون بنقدها ليس إلا . أجل ان وقفهم أمام الشاعر لا تختلف عن وقفهم أمام « المطرب » وكما أننا أمام المطرب نقف عنده مستمعين مصفقين له كلما أجاد في مواقف التصفيق أو مستعدين كلما أجاد في مواقف تثير الشجن فينا ، دون أن يهمنا من ماضى حياته أو من أخلاقه الشخصية شيئاً ، كذلك شأننا مع الشاعر . ولكنهم نسوا ذلك أو تناسوه .

وكم تعجب لو علمت أن هناك فئة من الشعراء الغزلين المسمّين الالباحين من القدماء نالوا من أدبائنا تقديراً واعجاباً ، واطراءً ، دون أن يكون في شعرهم « أخلاق » أو « فلسفة » ولعمري لماذا فهم أدباؤنا معنى الشعر فيما يختص بأولئك الشعراء السابقين ، وجهلوه فيما يختص بالشعراء المعاصرين . لماذا كان أبو نواس في نظرهم شاعراً ولم يكن غيره من المعاصرين في نظرهم شاعراً ؟ لا ندرى .

دعوا الشاعر لشعره ، واتركوا الإصلاح للمصلحين ، والفلسفة للفلاسفة ، ولا أعلم لماذا لا تطلبون من المصلح أو الفيلسوف أن يكون شاعراً ، وتحتمون على الشعراء أن يكونوا فلاسفة ومصلحين في آن واحد ؟

ولعمرك ما « الشعر » في أية لغة كانت إلا فن ذو « قيود » فان أردنا من هذا الفن المقيد أن يروى ظمناً من نبع الفلسفة أو يحمل لنا ما نتوخاه من أخلاق أو ما ننتظره من إصلاح ، فاناسنظل أبدأ جاهلين الفلسفة ، غير مدركين لمعنى الاخلاق ، لأن هذا كله لا يدرك ولا يفهم ولا يستجلى إلا من صناعة قيودها أقل من قيود الشعر وما هذه الصناعة الا الكتابة نثراً ...

فالشاعر فنان ...

ومن حق الشاعر أن يكون حراً ومن حقه ألا تمت تصرفاته الشخصية مهما كانت وصمة عار تؤاخذ عليها شاعريته مهما سميت أو دنت ...

ومن الناقدين من ينكر شأن الخيلة وخصوبتها في إمداد الشعر . قال الشاعر في نظرهم مهما أجاد في غزله فهو ليس بمجيد ما لم يكن حقاً متغزلاً أو عاشقاً ولا أدرى لماذا تنكر اجادته في باب طرقه فكان له من مخيلته خير معين على الاجادة ، ونحن نعلم أن الشاعر هو الذي تتكيف « روحه » بسهولة تبعاً لكل حالة يدعو إليها « الموقف » لا أعلم لماذا تنكر فضله في هذه السبيل ولماذا لا ينكر فضل المصور الذي يحسن رسم صورة ذبها من تعبيرات الحب والهيام ما فيها دون أن يكون قد أحب في حياته أو قاسى من تباريح شديداً ؟ ولعمري ان شاعراً يستطيع أن يسمو بخياله ويصوغ نفسه كما أراد ويستطيع أن يجعل من نفسه « هائماً » في موقف الهيام و « عاشقاً » عند وصف تباريح الهوى ، وحزيناً عند وصف غصص الحزن ، فيجيد في وصفه اجادة ليس بعدها من غاية ، لأخصب شاعرية وأرق فناً ، من شاعر لم يزه في هذا المضمار مع ما يلاقيه من ألم الهوى وتباريح الهيام ، وما يتحمله من غصص الحزن .

وسبب ذلك كله أن « الشعر » فن وكل من يتصدى لنقد الشعر دون أن يدرك معنى الفن لن يزدد في نقده إلا ضللاً وعن الحق إلا بعداً ...

فلنفهم إذن معنى الفن وروحه وحدوده ، قبل كل شيء ليتيسر لنا فهم الشعر والشاعر !!

توفيق حلي

فلسطين

المرأة

ماضيها — حاضرها — مستقبلها

من السهل على الباحث التفريق بين المظاهر التي يمتاز بها عصرين من العصور المتباينة ، وبهذا يمكنه أن يلاحظ فعل سنة التطور التي تقضي على فكرة إبقاء القديم على قدمه . والمرأة لا تخرج عن أن تكون مظهراً من المظاهر المتعددة التي يلد للباحث المقارنة بين الخطوات التي قطعتها في العصور المختلفة .

لما انتقل الانسان الاول من الهمجية الاولى إلى فجر حياته الحالية نشأت بزره نظام المجتمع في الكهوف ، حيث كانت تقيم أنشاء وحولها صغارها ، ولم يكن تردد الرجل عايتها إلا تلبية نداء الطبيعة وحفظاً للتنوع . وعند ما تطور الفكر في الانسان وارتقى عرف التملك وحاول تطبيق الفكرة على كل شيء ، فأصبحت القبيلة تملك جماعة من المحاربين ، وجماعة من النساء ، وقطعانا من الحيوانات ، ومساحة من الارض . وكانت النساء مباحات للجميع وعملهن محدود لا يخرج عن اكثار عدد المحاربين والقيام بالأعمال المحلية . في حين انحصر عمل الرجل في حمل السلاح لدفع الغارات والنهب وللقنص .

وكان لقوة الزراع الشأن الاول . ولذا استبد الاقوياء بالضعفاء ومنهم النساء . وقد كان المنتصرون يسبون نساء أعدائهم بعد استئصال شأفة كل محارب معاد يعثرون عليه . ولما ازداد الترف بازدياد غنى القبيلة اضطجع الرؤساء في عقر دارهم وتركوا الغزوات لمن يبنى الشهرة من أتباعهم المتحمسين ، وبجئوا لأنفسهم عن اللذة وطيب العيش فوجدوها في النساء . وقد يكون السبب المدافع لؤلئك الزعماء على احتكار نساء مخصوصات لأنفسهم انبثاق حاسة « الميل إلى الجميل » فيهم وهكذا أصبحت المرأة أداة للذة ، فأنحطت مرتبتها أكثر مما كانت عليه في عهد كان للقوة فيه المكان الاكبر وكانت السراري فيه في تكاثر مستمر ، وفي حين كان عدد الرجال في نقصان لكثرة ما كان يفنى منهم في الحروب والتعرض للخطر

وزاد في انحطاط المرأة انها كانت أكثر اتصالاً برجال الدين المشعوذين لأن

الرجال كانوا غالباً بعيدين عن نظريات السحر والتنجيم والخوارق فاذا رجعوا كان لهم من لعبهم أو قصصهم ما يقال من تأثرهم بالخيالات والترهات التي كان للمرأة وقت كاف لاستيعابها . وكان لها شغف بالوقوف على الغريب منها قدر ما كانت ميل لسماع قصص الحروب والمخاطرين من الرجال . إذن فهناك أسباب أدت إلى انحطاط المرأة في صدر التاريخ هي القوة الجسدية والسبي وجو الشعوذة الدينية التي عاشت فيه .

وحتى في فأتحة العصر الصناعي عكفت المرأة على صناعات كان الرجل يأنف من التدنى اليها ولكن اتساع العمران غير الاساليب المعاشية فحاول الرجل مكرهاً أن يزاحم المرأة في صناعاتها ولكنها كانت سبقته وأتقنت ما تعلمته قبله فاضطر أن يلتفت إلى الاتجار بما كانت تصنعه ، فخاب البحار ملبياً ميوله الطبيعية إلى اقتحام الاخطار ، فاكسب معلومات جديدة وصناعات حديثة اختص نفسه بها وعلى مرور الزمن نال بها مركزاً رفيعاً . في حين كانت المرأة تعمل على الطريقة القديمة لبعدها عن الاختلاط بأوساط مغايرة لوسطها ، وبيئات مباينة لبيئتها .

وكان من نتيجة ذلك أن غرست في المرأة صبغة حديثة هي دقة الصنعة التي تحتاج إلى سعة صدر وصبر طويل ، كما اتجه ميل الرجل إلى العمل المضني الذي يحتاج للحركة والمجازفة . ولما زادت الاختراعات والاكتشافات ولم تعوز الحال الحداد مثلاً إلى أن يستعمل عضلاته لحلول الآلات محلها ، انفتح باب الأمل أمام المرأة وأصبح لصبرها مجال واسع . وهانحن الآن نشاهد الرجل والمرأة أحدهما يواجه الآخر في مطالب الرزق . هي تطلب مكاناً لها تحت الشمس وهو يدافع عن معاشه . فنحن على أبواب ثورة لا بد من أن يحدث فيها الجنسان

كذلك قلت الحروب وامتنع السبي وكاد الجنسان يتساويان في العدد . أما الخبز فلم يعد في الامكان نهبه ، بل يشترط العمل لنواله . فكيف يتيسر لرجل أن يحتفظ بقطيع من النساء في بيته ، ومن أين يتيسر له اطعام غيره وهو عاجز عن كسب ما يحتاج اليه ، وهو أضعاف ما كان يحتاج اليه أسلافه الاولين . فالكفايات أصبحت ضروريات ، وارتفع مستوى الحياة لدرجة لم يتصورها الأقدمون ، حتى لقد اجبر الرجل على التغاضي عن ظهور المرأة في ميدان العمل ، فوقف مكتوف اليدين ينظر اليها وهي تهدم آخر حجر من صرح سيادته عليها .

وما دامت المرأة قد وقفت على طرق الكسب ولم تعد تعتمد على الرجل في كسب قوتها ، فهي مستعدة لتحمل كل تعب بأقل أجر لتأكل وهي حرة طليقة . لان قسوة الرجل وأنانيته لم يغربا عن بالها بعد ، فكم كانت تتعذب وتتعب ولا تجد إلا ما يسد جوعها مما يرميه اليها .

فهل إذا عملت المرأة وربحت تقبل ذل الزوجية ؟ هذا ما يخافه علماء الاجتماع في الوقت الحاضر وكثير منهم يتنبأون بانهدام العائلة . ولكنهم لم يصلوا بعد الى الاتفاق على ما ينتظر أن يحل محلها ، إذا كان لابد من حلول نظام آخر محل هذا النظام الذي أخذ في الاندثار .

والسؤال ينحصر الآن في هل تجرى مصر في هذا الطريق ؟ أم لا ؟ والجواب نعم ، فقد امتنع التجار بالرقائق الأبيض ، ومال أغلبية الناس للاقتصار على امرأة واحدة بعد ما كانوا يحوزون من السراى والمحظيات كل ما ملكت أيمانهم من النساء . وها نحن نرى السرايا والقصور والمنازل المستقلة تزول تباعاً ليحل محلها عمارات شاهقة مقسمة الى شقق صغيرة لا يمكن للمرأة أن تتحمل المعيشة بين جدرانها وقتاً طويلاً . وأيضاً نجد أن قيمة النقد في انحطاط ، بيد أن طلباتنا في ازدياد ، وهذا ما يمنع كثير من الشبان عن الزواج . فاذا ذكرنا بجانب هذا أن فتياتنا غير متعلمات ، وأن آباءهن على وشك مفارقة الحياة دون أن يخلفوا لهن ما يعشن به ، لم يكن لنا أن نعجب اذا رأيناهن يسهن جهدهن لاصطياد سيد ينفق عليهن بأى بذل . وأما طبقة المتعلمات فاعلبن يملن الى كسب طعامهن بعملهن بعيدات عن غطسة الرجل .

وسنواجه في هذا البلد نضالاً أشد من النضال الذى قام في الغرب ، لان هذا النظام قد سار هنالك على سنة التطور والنشوء . أما هنا فسيكون النضال عبارة عن سلسلة انقلابات وثورات .

والحالة المنتظرة واقعة لا محالة — لان منعها من المستحيل — فاذا أردنا أن نكسر من حدتها ونلطف من سورتها ، فلنعكف اذن على تعليم البنات تعليماً عملياً عالياً حتى لا تضطر الى الاشتغال بمهنة اشباع شهوة الرجل البهيمية ليس إلا . وقد يقول قائل بان الغرب قد أوصل المرأة الى هذه النتيجة . وهنا وجه الخلاف بيننا . فانه يجب علينا أن نعلم بان تلبيه الانسان لنداء الطبيعة أمر لا مفر

منه يؤتى هذا باتصال فردين كل منهما من جنس مختلف عن الآخر ، أما برابطة مقدسة أو برابطة حرة . والخلاف هنا ينحصر في تقدير نوع الرابطة . وأما المرأة التي تجرى وراء الرجل لتسد حاجته الشهوانية من أجل معاشها ، سواء أكان ذلك بزواجه منها أو بمعاشرة لها ، فغالها مختلفة عن تلك تمام الاختلاف . لأن الأولى لا تقع تحت تأثير الرجل الا وقت حاجتها لتلبية نداء الطبيعة ، وأما الأخرى فتجري وراء أكل خبزها الذي تحتاج اليه ثلاث مرات يوميا ، ولأجل كسائها ولأجل اقامتها تحت سقف وبين حيطان ، وهذا أمر حاجي دائم .

فالتطور لا بد منه ، والانقلاب لا محالة واقع . لهذا كان الواجب علينا أن نوجه خطى هذا الانقلاب في وجهة يستفيد منها المجموع .

ولقد أخذت فكرة السفور في الانتشار ولم يقد الجدل في القضاء عليها . وبدأ الجامدون يقللون من غلوائهم ضد تعليم المرأة تعليما راقيا ولم يبق أمامهم إلا النظر بحسرة الى ضحايا الغفاف والاخلاق . وهو أمر لو علموا أنه لا بد منه تبعاً لجهل المرأة وحاجتها الى من يطعمها ، أكثر مما هو طلباً لسد حاجة شهوانية ، لأن طلبها الشهوة بهذه الصورة الدائمة لا يعقله من له أدنى وقوف على حقيقة الطبيعة البشرية ، اذني لكان لهم طريق غير الطريق التي يسلكونها ولسارعوا الى الاصلاح بدل الندب والنواح .

المرأة بتبرجها أو تهتكها تقوم بمظاهرة تطلب بها منا أن نوجد لها عملاً لدنيا لتطمئن على يومها وعلى فلها . فهي تبذل كل جهدها وتنصب شباك جملها للتصيد لها رجلاً يمكنها الاتكال عليه وهي في بيتها . والرجل يتهرب من تحمل المسؤولية لانه لا يجد في المرأة ما يجذبه الى البقاء بقربها مضعياً بكل راحة ، إلا نداء الطبيعة . المرأة عندنا لا تعرف معنى لمصادقة الرجل ولا تعرف كيف تتفاهمهم ولذلك تجد الرجل ينصرف عنها للبحث عن هاتين الخلتين . وأما المرأة الغربية فسواء أكانت خلية أم حليمة ، فهي دائماً مع الرجل أين حل وأين ذهب . حتى ان سير رجل في احدي الطرق وحيداً أو مع رجل آخر ، أصبح من المستقررات . اما هنا فعمل العكس من ذلك تجد أن الرجل لا يعرف المرأة الا في البيت فاذا لم يهذبها بالتصادقة وتتفاهم معه فإن يهتم في المستقبل — عندما تنقلب النظم الحالية سواء أرضينا أم كرهنا — الا ساعة تدعوها الطبيعة لحفظ النوع . أعدوا المرأة لكسب قوتها بالعمل ذلك خير من دفعها لا اكتسابه بالتفريط في عرضها . حسين محمود

الخطرة النفسية والشعور بالجهة

« بحث عامي »

قبل أن نتكلم في الحالات النفسية والخطرات الذهنية التي تقود الفكر — رغماً عنه — إلى نتيجة مخصوصة ، وتسوقه قسراً عنه في طريق ما ، تبعاً لموضوع التفكير أو لخاطر سباح ، يحسن بي هنا أن أعرض لبعض حالات عامة للنفس توطئة لذلك : إن النفس كالبحر المحيط أر النهر الجاري ، والأفكار السانحة التي نشعر بمرورها في داخلنا تشبه الأمواج على سطح الماء العميق . وقد مثلت لذلك في المقال السابق عن « الخطرة النفسية وموضوع الذهن » يرسم بياني فليرجع إليه .

إن أمواج الفكر هذه تختلف من حيث الحجم والسرعة والحركة والاضطراب والانتظام ، فتارة تكون بطيئة السير ، وتارة مندفعة متدفقة كالسيل ، وكل ذلك تبعاً للحالة الصحية في الشخص المفكر ، أو الحالة الذهنية السابقة لهذه الحالة . ويشبه ذلك الطير في تنقله والفرش في طيرانه ، إذ لا ضابط لطيرانه وحركته . على أن لكل منهما فترات سكون وهندوء يخلدان فيها إلى الراحة التامة وهنم الطيران . وكذا الأمر في حالات الوعي وسواج الخاطر ، فإن بها ما يشبه ذلك التثقل ، فحين نشعر بمرور الفكر في النفس ، واجتيازها لخطاير . وحركة الاجتياز والعبور هذه يسميها وليم جيمس « الأجزاء الانتقالية » لنهر الوعي والفكر .

والحالات التي تقف أمام النفس ريثما تعبرها ويتمكن منها يسميها « الأجزاء الجوهرية » أو البارزة أو الثابتة لنهر الوعي أيضاً . ومما يساعد على فهم هاتين الحالتين ، اللغة وتركيبها . فإن كل جملة تنتهي بعد إقادة المعنى المستفاد منها . وقد اصطلح في اللغات الغربية بوضع نقطة ، علامة على نهاية الجملة . وقد تابعنا نحن وغيرنا من الأمم الشرقية في ذلك .

هذا أمر منطقي طبيعي . أما الاجزاء البارزة أو الثابتة من نهر الوعي فتشغلها عادة الصورة الحسية . وأما الاجزاء الانتقالية فتحل فيها الخطرات والافكار التي تمثل العلاقات والنسب بين هذه الصورة الحسية . على أنه من المستحيل إيقاف الفكر وفحص مكوناته وما تتألف منه الخطرة النفسية ، لأنه بمجرد ما نلتفت الى الحالة الذهنية المطلوب فحصها ، تكون قد انعدمت وحلت محلها حالة نفسية جديدة .

وقد نشأ عن تلك الاستحالة مذهبان فلسفيان كلاهما خطأ : أولاً — مذهب الفلاسفة الحسيين الذين ينكرون وجود العلاقات والنسب في الذهن ، ويقولون بعدم وجودها البتة ، لا ننالا نشعر مطلقاً في أنفسنا بوجود هذه الحالات المزعومة . وقد غالوا في ذلك وعلى رأسهم دافيد هيوم الانجليزي وانكروا ليس فقط وجودها داخل الذهن ، بل خارجه أيضاً . وثانياً : طبقة من الفلاسفة تسمى بالعقليين سلمت مع الاولين بعدم وجود حالات ذهنية تمثل العلاقات والنسب بين الاشياء خارج الذهن . ولكنهم لم يستطيعوا انكار العلاقات بين الاشياء خارجه . فقالوا ان العقل يدرك هذه العلاقات لا بحالة وعى نشعر بها في صميم أنفسنا ، بل بعمل عقلي خالص . ومن هنا أطلق عليهم اسم العقليين

على أن كلتا الطائفتين على خطأ . وقد ساعد على هذا الخطأ عجز اللغة الذي نوهنا عنه . فالحسيون أو التجريبيون لما لم يجدوا في اللغة غير الالفاظ المفردة الدالة على مفردات الاشياء ، ظنوا كذلك أن الحالات النفسية مفردة . وقد برهن على فساد هذه المزاعم جمع من الفلاسفة وعلماء النفس فقام أمثال دي تارسي ولارومينير وكارديلياك والدكتور توماس براون وسبنسر وجيهس وغيرهم وقالوا ان عقولنا تعي أشياء كثيرة وصور شتى في حالة نفسية واحدة وفي آن واحد . وأن هذا الادراك الجامع في الآن الواحد ، يجعلنا نشعر شعوراً متفاوت قوة وضعفاً بوجود فوارق ومشابهات بين الاشياء . وان تلك الفوارق والمشابهات الكائنة بين الاشياء هي بذاتها العلاقات التي نقول بوجودها ، والتي يقابلها في المخاطر حالات وعى على غرارها . وبما أن علاقات الشيء ونسبه غير متناهية الحصر فحالات الوعي المقابلة لها غير متناهية قياساً .

وقد قال أولئك الفلاسفة أن حالات العلاقات التي أنكر وجودها الحسيون ليست الوحيدة من نوعها ، بل يوجد ما يشبهها في حالات نفسية عديدة يدمجونها في سلك واحد ، ويطلقون عليها اسم «مشاعر الاتجاه» **Feelings of Tendency** : فمن ذلك شعورنا بحب أو كراهية بعض أشخاص بسبب حوادث مضت وعفى عليها الزمن ، فتنوسيت الحوادث ولكن أثر الحب ، أو النفور بقي في النفس يثيره مرأى أولئك الأشخاص أو ذكراهم . وكلاً أكددنا الذهن للوصول إلى أسباب ذلك ذهبنا جهودنا عبثاً . فالشعور والحالة النفسية موجودين ولكن السبب ، بل وذكراه ، معدومان بالمرّة

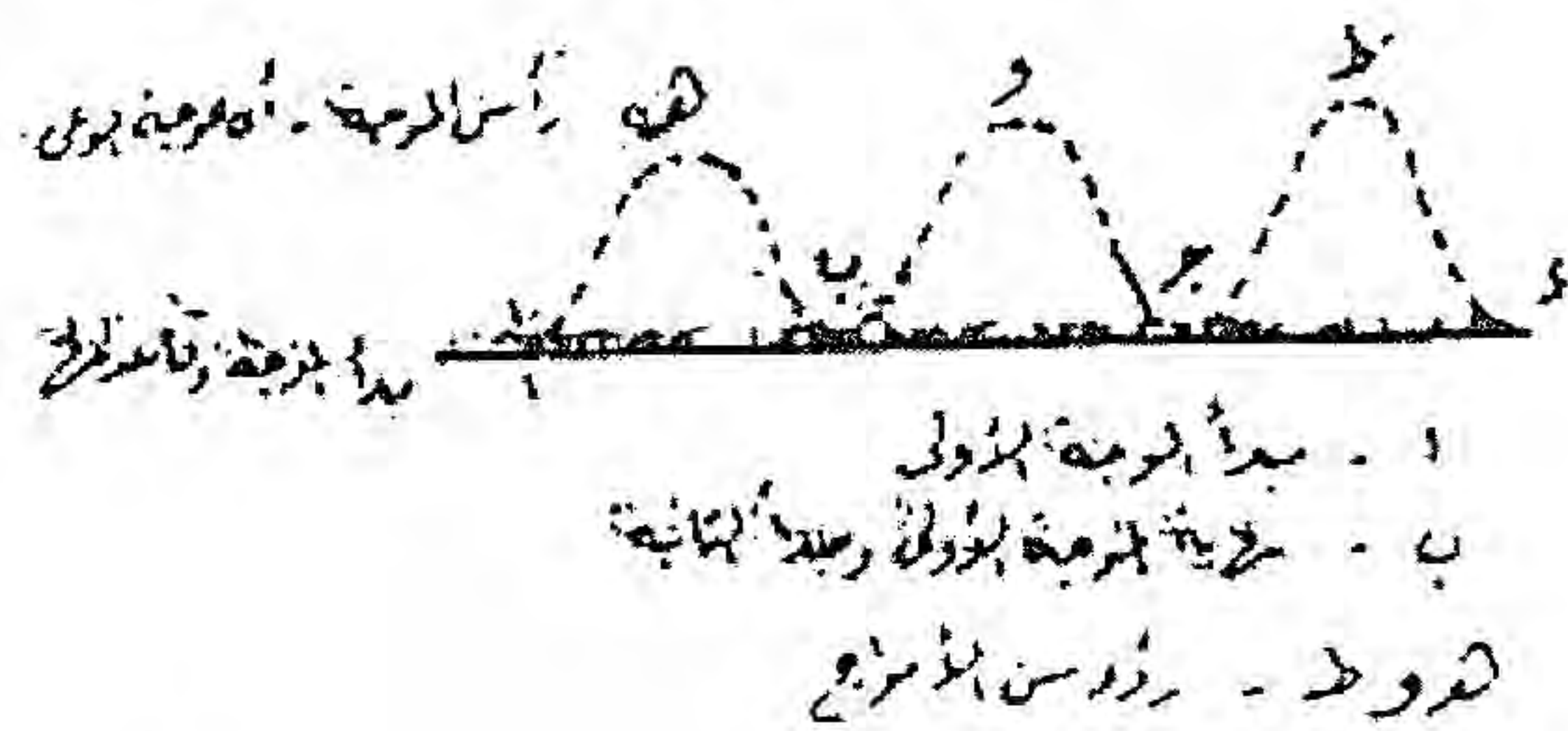
ومن ذلك أيضاً الشعور بالجهة أو توقع حصول أمر ما بعد سماع كلمات فيها صيغة الأمر مثل : اسمع . انتظر . صه . هس . وغيرها من الالفاظ التي تجعل السامع يتلبس بحالة نفسية خاصة كأنه يتوقع أمراً ، ولكنه يجهل ماهيته . ففي داخل النفس حالة وعى خاصة . على أنه لا يوجد في الخارج بعد أمر يتم به ما يتوقعه المرء . ومن ذلك أيضاً الحالة النفسية الخاصة التي تغرى المرء عند محاولة تذكر اسم نسيه . فالحالات النفسية والتفكير الخاص بالشخص لها روى خاص وسياق خاص وسرعة خاصة كما قلنا . فالاسم المنسى يحاول الظهور ، وهناك مثاله وقالبه وإن شئت قلت كما يقول جيمس — شيطانه — يشير لجهته ويلفت النظر نحوه محاولاً الظهور والخروج عارياً أمام الخاطر تعريفاً لنفسه المنسية . على أنه مع المحاولة لا ينفاج . فالحالة النفسية موجودة في الخاطر ولكن الصورة الحسية غائبة غير حاضرة أضف الى كل ذلك أن قسماً كبيراً من اللغات هو عبارة عن اشارات جهة ، وبعبارة أخرى أنها لا تشير في النفس أكثر من مشاعر المجاهية ، دون أن يصحبها صور حسية ما . وإذا ما حاولنا استيقافها لفحصها فأنها تتلاشى وتتبدد تبدد البخار ، بخلاف الصور الحسية فأننا نستوقفها ونسألها وتأمل فيها

أما الحركات الفكرية والنتائج المنطقية فأننا نشعر بها وهي تجتاز الذهن طائراً أبداً . فشعورنا بها شعور أيضاً بالجهة . لأننا نشعر بأنها مندفعة مسوقة إلى جهة أو نتيجة ما .

ومن الشعور بالجهة أيضاً الحالة النفسية الخاصة عندما نهم بقول كذا وكذا . وقد

فسر بعض العلماء ذلك بقانون علم النفس المعروف بقانون « تداعي الأفكار » (١) وقالوا إن الفكر يدعو الفكر فيحصل في النهاية إلى نتيجة يكون قد ألف واعتاد ما يوصل إليها من حالات سابقة . على أن جيمس يعترض على ذلك ويقول انتا قبل أن نتكلم لا نعلم في الغالب ماذا سنقول ولا إلى أية نتيجة ستوصلنا أفكارنا . فنعن نشعر بالجهة فقط ولكننا نجعل كل الجهل النتائج التي يدفعنا إليها تفكيرنا . وأقوى الأدلة على تأييد ذلك هو تفكير النوابغ والعظماء . فان التأليف الفني عند رجال الموسيقى والكتاب والشعراء مثلاً يأتي إلهامه في لحظة واحدة . وشعورهم في تلك اللحظات هو شعور بالجهة فقط .

أضف إلى كل ما سبق حالتين أخريتين : الأولى الشعور بالوصول إلى نتيجة فكرية . فان الفكر يشعر بأنه مسوق إليها قسراً . وإذا ما وصل إليها يشعر أنه مسوق إلى نتيجة أخرى جديدة . وهكذا على التوالي . ولتمثل ذلك بهذا الرسم البياني :



والحالة الثانية هي الخطأ في هجاء الكلمات . فان الفكر ينحرف عن الجهة المقصودة إلى جهة أخرى . وقد أرجع الدكتور كاربنتر ذلك إلى تغير محلي في كمية توارد الدم والسيال العصبي إلى المخ . ونجهة التفكير المقصودة وينحرفه عن جادة الصواب ، فيحصل الخطأ في تهجئة اللفظة ، وتوضع الكلمة في غير محلها . ولنسب الظل الذي ترميه الحالات النفسية السابقة على حالة الوعي الحالية بما يكاد يشبه الامتزاج ، بالهامش أو الهذب أو بالانتشار . وبذلك يصير الهذب جزءاً من موضوع الفكر . وتظهر المقومات الثابتة للشيء أمام الفكر في حالة وآثار من العلاقات والنسب التي ترمي عليه ظلالاً رقيقة كما ترمي السحب الخفيفة الصيفية ظلها الخفيف على قرص الشمس ، أو كاهالة القمر

(١) تداعي الأفكار : اصطلاح يوافقه في مصر هنا (تسلسل الأفكار) وفي سوريا (اشتراك الأفكار) ، وهو اصطلاح الاراك على لفظة association لأن الفكر يدعو الفكر وعندني أنه هنا أدل على المعنى . وفي الفارسية يضعون له كلمة مترجم حرفياً (اجز الأفكار)

من هنا يظهر لنا الفرق العظيم بين المعرفة بالشيء والمعرفة عن الشيء .
 معرفتنا بالشيء قاهرة على الأثر المجرد الذي يتركه هو وحده في النفس بصرف
 النظر عن العلاقات والارتباطات والنسب . ومعرفتنا عن الشيء هو معرفتنا
 بملائقته ونسبه دونه . ومعرفتنا بالعلائق والنسب هذه لشعر بها في الظليل والهمالة
 الموجودة حول الموضوع شعوراً بللوجو دفقة ، دون استعواز على عقر ذات صورها
 على أن لهذه العلاقات والنسب حول موضوع الذهن تألف وتجانس وسعياق .
 منطقي معين ينظم كل جملة منها في سلك ونظام خاص . وبعبارة أخرى يجب أن
 تكون كل علاقة وكل نسبة جزءاً من مجموعة خاصة نواتها ومركزها موضوع
 الوعي أو الفكر نفسه . وذلك لأن النتيجة والسياق المنطقي هما أهم أمر في التفكير
 ومن أنواع التألف المعروفة في علم النفس تركيب الجمل في اللغات فاني . لكل
 لغة تألف مخصوص بين الألفاظ بعضها ببعض لا تشذ عنه . فلا يقدم المفعول
 على الفاعل ولا الخبر على المبتدأ في العربية مثلاً . بل إن إدخال كلمة أجنبية في اللغة
 التي نكتب أو نتكلم بها كثيراً ما تأباه . طباعنا لمخالفتهم قانون التألف اللغوي الذي
 درجنا عليه . على أن من المشاهد أن النطق بكلمة ما يتبعه في الغالب ، وذلك نظراً
 للاعتماد السابق ، سلسلة ألفاظ أخرى قد لا تكون لها رابطة بالموضوع الذي
 نحن بصدده ، يضطروننا الاستعمال اللغوي — دون شعور منا وقسراً عنا — إلى
 استعمالها واعتبارها جزءاً مهماً من موضوع التفكير . ولذا قل الاستاذ جيمس
 إن الحد الفاصل بين اللغو والمعنى المستقيم من أشق الأمور . وعلمنا هذا في
 مصر الأمثلة متعددة . فكم من عبارات جوفاء ومبهمة كل الأبهام تفشها الجرائد
 لأناس لا شأنهم . يعتقدون بكل اخلاص أنها ذات معنى مفيد ، بل أرى بعضاً من
 الأدباء ومن بلغوا الدروة في فن الكتابة لم يعلم من ذلك السقوط .

وقد يبلغ عدم التمييز بين اللغو والصحيح جداً يتحذر على القارئ معه أن
 يصل إلى وحدة سياق الكلام والوصول إلى نتيجة ما . وقد أورد صاحب كتاب
 عيسى بن هشام شيئاً من هذا النسب إلى أحد المشايخ « ص ٢١٥ — ٢١٩ طبعة ثانية » .
 ومن برع في ذلك ، وإن أهمل زبانه التمييز بين طوائف جوهرية ، خصوصاً في
 كتابه « أين الألسن » ومن ذلك آخر كتاب للفضيلة الاستاذ الشيخ بحيت عن
 « حقيقة الإسلام وأصول الحكم » فيه كثير من تلك اللغو البسيكولوجي .

ولا شك في أن هؤلاء الأفاضل يرون في كتاباتهم ما لا يرى غيرهم فيها أضف إلى ما سبق ذكره من عدم التمييز بين لغو الكلام وصحيحة ، ان أية مجموعة من الالفاظ لو روعي فيها التناسق والتآلف اللغوي لألفت جملاً تؤدي معنى مستقيماً وان يكن بعيداً كل البعد عن مجازاة الواقع والحقيقة . بل ان أكثر الالفاظ بعداً عن الحقيقة في الرؤى والاحلام يؤدي ذلك ، بشرط ألا يشك المرء في أنها مرتبطة بعضها ببعض . بل ان كل لغات العالم حتى الفطرية منها ، تحتوي على مجموعات من الالفاظ بمجرد النطق بلفظ منها يتبعها حتماً ألفاظ أخرى بعينها لا تتغير أبداً . فمن ذلك في العربية مثلاً : اللهم ان . مع انه . ولا سيما . ولا بد من أن . الخ . فالمعاني إذاً على قسمين : معان واقفة يقتصر الذهن فيها على عدم التنقل والسكون في الحالة الوعائية . ومعان متحركة يدعو فيها المعنى معان أخرى . ومن هذا التقسيم يمكننا أن نفهم بعض أخطاء الفلاسفة السابقين . فمن ذلك قول هيجل الفيلسوف الألماني المأثور : « إن الوجود المحض يستوى والعدم المحض سواء بسواء » فأننا نرى هنا أنه أخذ المعنى على وجهه الساكن القار الموضوع أزاء اللفظ ، دون الالتفات إلى علاقته ونسبه وان شئت فقل حالته وظليله .

هذا وقد حدث كثرة الالفاظ التي لا معنى لها في اللغات ببعض إلى القول بأن التفكير ممكن بدون لغة وان الفكر ليس في حاجة الى صور رمزية من لغة وألفاظ وإشارات وغير ذلك . أما الاستاذ مكس ملار الألماني اللغوي الشهير فقد أنكر ذلك وقال ان الفكر واللغة متلازمان لا ينفصلان عن بعضهما البعض . على أنه يدرج تحت اللغة جميع الالفاظ والرموز التي ليس لها مقابل في اللغة . ويستثنى من ذلك مجموعة الالفاظ التي تدل على العلاقات والنسب . أما الذين يعارضون الاستاذ ملار فيوردون تأييداً لرأيهم ذكر أشخاص كانوا طرشاً عمياً بكماً ، واستطاعوا مع ذلك التفكير والكتابة والتعلم مما يدل عندهم على امكان التفكير بدون لغة .

وقد ذهب الاستاذ ليويس في كتابه مسائل الحياة والعقل مذهباً آخر متابعاً في ذلك القس الفيلسوف بركلي الانكليزي في أن الفكر هو رمز حسابي أشبه برموز علم الجبر . وقد شرح ذلك شرحاً بديعاً فقال : إن المهم في علم الجبر هو أن كل عملية جبرية تجري بين نسب رياضية مخصوصة . وكذلك خاصية الفكر .

وكما ان علم الجبر لا يمكن أن يوجد الا بوجود قيم حسابية لكل علامة جبرية ،
فكذلك الامر في الفكر ، فانه لا يمكن أن يتحقق إلا بوجود مشاعر . والعمليات
الجبرية تظل صوراً جوفاء حتى يتحدد لكل منها قيمة حسابية خاصة . والامر في
الالفاظ والكلمات لا يخرج عن حكم هذا فان كلامها عبارة عن أصوات معدومة
المعنى ، والافكار صور جوفاء ، حتى يدل كل منها على صور واحساسات لها قيم
خاصة . على أنه من المعلوم ومن المهم جداً أن الرياضيين يجرون عمليات رياضية
طويلة بواسطة هذه الرموز الجوفاء دون أن يتوقعوا حتى يعطوا كل رمز
وكل حرف جبري قيمته الحسابية . بل انهم يعالجون المسائل ويكدون أنفسهم
في حلها حتى يصلوا إلى النتيجة . وتلك قاعدة عامة لا يشذ عنها عامة الناس ، عالمهم
وجاهلهم . فهم يجرون عمليات تفكيرية طويلة دون أن يعنوا بترجمة الالفاظ
والعبارات إلى صور محسوسة . فكلمة أسد مثلاً لا تذكرنا بخبرة شخصية مباشرة
مع ذلك الحيوان . وأكثر الناس لم يختبروه عن كشب ولم يعرفوه . ولكن
الكلمة رمزية تثير فينا عوامل الرهبة والخوف والوحشية . فالافكار إذاً رموز
تحتاج إلى عملية ثانوية لترجم فيها تلك الافكار إلى ما تشير اليه وترمز له من
الصور والاختبارات الشخصية التي تستبدل منها . على أن هذه العملية الثانوية
قلما تحصل وقاما يلتفت إليها الذهن . ولا يلجأ اليها إلا في النادر . فالمفكرون
إذاً يعطون قيمة نهائية لأفكارهم كأنهم يجرون عملية جبرية فيشبهون بذلك
الرياضيين الذين يجرون العمليات الطويلة ليعطوا في النهاية قيمة حسابية لكل
مجهول في المعادلات الجبرية .

ع . حسين تقي اصفهاني

عصر المأمون

رسالة مدرسية نال بها الاستاذ احمد فريد رفاعى لقب دكتور فى الآداب من الجامعة المصرية ، ولم يظهر منها مطبوعاً سوى الجزء الاول الذى نعرض الآن لنقده فى هذه العجالة .

لقد أحدث الدكتور فريد رفاعى حول رسالته هذه من الضجة قبل ظهورها فى عالم المطبوعات ما كان من الواجب أن يترك لاقلام النقاد . ليس من حرج فى أن يعلن مؤلف أو ناشر أو طابع عن كتاب قرب ظهوره ، ولكن الحرج كل الحرج فى أن تعلن عن كتاب فتصفه بأنه وضع على الطريقة التحليلية الحديثة وأنه أحاط بعصر المأمون احاطة تامة شاملة وأن واضعه قد بلغ فيه منتهى ما يبلغ النقد الصريح الحر بكاتب من الكتاب ، إلى غير ذلك من الاقوال التى من شأنها أن تضع للناقدين ازاء الكتاب خطة ليس من السهل أن يخلص من آثارها الكثيرون فى زمان كدنا نعدم فيه ملكة النقد والتفريق بين مراتب الاشياء . ويكفيك أن تقرأ فى اعلانه عن الكتاب قوله — « وهو ذلك الكتاب الممتع الشيق فى بحوثه والمكتوب بالطريقة التحليلية الحديثة » — وأن هذا الكتاب « هو الذى وضعه الاستاذ النابغة الدكتور احمد فريد رفاعى بك » — إلى غير ذلك .

الكتاب ضخيم متسع النواحي متعدد الصور . وهو على تعدد صورته وتشعب مواضيعه ، قد كثر فيه النقل عن مؤرخى العرب وقليل من المستشرقين مثل تولديكهوسير وليم ميور ، وبعض أقوال عن الاستاذ سانتيلانا والاستاذ نلليينو وكلاهما درس فى الجامعة المصرية وكان لزام أن يعرف عنهما المؤلف شيئاً . وعلى الرغم من أن مصادر المستشرقين التى اعتمد عليها المؤلف هى بذاتها مصادر تستحق الاحترام الكبير ، فانه أهمل كثيراً من مصادر المستشرقين الذين كتبوا فى حضارة العرب بالذات . مثل فون كريمر وهيل وبلايوس وجولد تسيرر ويكير والعلامة كارادوفو وهورحرونجى وغيرهم كثيرون . وليس هذا أول

ما يعرض لك من نواحي النقص في الكتاب . بل يعرض لك امعانه في النقل عن مؤرخي عصر المأمون نقلاً لم يتوخ فيه النقد والمقارنة . يدلك على هذا انك قلما تقع في كتاب تبلغ صفحاته الخمسة الا قليلاً على موضع قارن فيه الكاتب بين قولين أو مدونتين ، اللهم الا تنفأ قليلاً . حتى لقد تقول بحق أن كثرة النقل الحرفي عن كتاب العصر المأموني ومؤرخيه كاد يفقد الكتاب صفة النقد التحليلي ويجعله أقرب إلى الناحية التقريرية الصرفة .

إذا اعتبرنا أن عصر المأمون من العصور الرئيسية في حضارة العرب ، وإذا حق لنا أن نعتبر أن هذا العصر من أكثر عصور المدنية العربية تشكلاً بالمدنات الغابرة ، كمدنية الكلدان وبابل واشور والرومان واليونان ، بل ومن أشد العصور تأثيراً فيما عقبه من المدنات ، كمدنية الاندلس في العصر الاموي ، أو كمدنية مصر في العصر الفاطمي ، ظهر لنا أن أكبر منقصة تعتور كتاباً يكتب في هذا العصر اغفاله الكلام في المدنية العربية ، أو المدنية التي ندعوها تجاوزاً مدنية عربية ، وتأثرها بما سبقها من المدنات ، وأى المدنات كان أبلغ أثراً في تكوين تلك الصورة العمرانية الحديثة ، وما هي الاسباب التي دفعت جاهلية الاعراب إلى الخروج عن حدود صحرائهم المجردة المجردة الغبراء ؟ أكاب عامل ديني أم اقتصادي أم جنسي ؟ وكيف يمكن أن يكون الكلام في صورة مدنية من الصور التي تقلبت فيها مدنية العرب كما تدعى اصطلاحاً ، وعلى الاخص في عصر كعصر المأمون ، تاماً مستكلاً لشروط النقد والتحليل ، من غير أن يستقر كاتبه على رأى في الاسباب التي قامت عليها المدنية العربية التي يكتب في صورة من صورها ؟ ليس لي علم بهذا حتى الآن .

من الكتاب من يقول بان الدوافع التي خرجت بجاهلية الاعراب عن صحرائهم كانت عوامل دينية . ومنهم من يقول بانها عوامل اقتصادية . ومنهم من يقول بانها مجموعة من العوامل والمؤثرات لا يمكنك أن تحدد أيها كان أشد من الآخر خطراً وأبلغ فعلاً . فمن أي فئة يكون مؤلف عصر المأمون ؟ وإي الآراء يتبع ؟ ذلك مالا نقف له على أثر في المجلد الضخم الذي نشره في الناس . وكان من الواجب على المؤلف أن يتوافر على هذا البحث قبل أن يتورط في الايغال في عصر المأمون تقريراً وكتابة وبحناً ، بل ما كان أجدره بأن يجعل لهذا البحث نصيباً ولو كنصيب

الدولة الاموية التي خصها بجزء غير قليل من الكلام توطئة للبحث في عصر المأمون . ولا مشاحة في أن هذا النقص يفقد الكتاب كثيراً من قيمته بل يفقده المادة الأساسية التي كان من الواجب أن يعتمد عليها المؤلف اذا ما أراد أن يبلغ من عصر المأمون بصورة من النقد التاريخي فيها شيء من قوة الاستقرار والثبات .

نصرف هذا الحكم على الكتاب في مجموعه ولو أردنا أن ننقيد الكتاب نقداً يتفق وعدد صفحاته لطال بنا القول ولا عوزتنا الحاجة إلى صفحات عديدة لا يتسع لها صدر المصور . لهذا نقصر البحث على ناحية بعينها من نواحي الكتاب نحدد بها جهة النقد ، ونحدد بها للقراء قيمة الكتاب من حيث البحث العلمي القائم على الطرق التحليلية كما يقول مؤلف عصر المأمون . وأية ناحية في عصر المأمون هي أبلغ أثراً في الحياة العامة ، بل وفي مستقبل المدنية العربية من حركة النقل والترجمة والاشتغال بعلوم الاوائل ؟ لهذا نقصر النقد على هذه الناحية لنعطى به للقراء صورة حقة من الكتاب وما انطوت عليه خمسمائة من الصفحات الا قليلا ، حسنة الطبع جيدة الورق .

وحتى في هذه الناحية من نواحي الكتاب لا تعرف كيف تبدأ نقدك ؟ أبتدىء فيه بالكلام في الاسباب التي حدثت بالمأمون إلى الاشتغال بالعلم ؟ أم تبدؤه بالكلام في السبب الذي من أجله نقلت علوم اليونان وفلسفتهم إلى السريانية ؟ أم تصدر النقد بالكلام في ادخال الارقام الهندية إلى بغداد وما كان من أثرها في الرياضيات ؟ أم تتكلم في كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية وقد خصه المؤلف بعناية لم يخص بها غيره ؟ أو تتكلم في كتاب الايثولوجيا وقد أخطأ المؤلف ازاءه خطأين أولهما أنه نسبته إلى ارسطوطاليس ، وثانيهما أنه أغفل علاقة الكتاب بالبسيكولوجيا لارسطو ؟ هذه وأشياء غيرها هنات تؤخذ على المؤلف ، بل هي أخطاء فاحشة ، غير جديرة بكتاب وضع على الطريقة التحليلية الحديثة ، وعنى واضعه بناحية النقد لا بناحية التقرير كما يقول .

كانت اللغة السريانية أخصب مرجع عمد اليه النقلة من العرب ترجمة واقتباساً . بل اننا لا نخطيء إذا قلنا بان العرب لم يعرفوا للترجمة طريقاً لدى أول اكبابهم على النقل إلا طريق اللغة السريانية . ومن طريق هذه اللغة ، التي عاشت في

الشرق زماناً أخذت فيه نفس المكانة التي شغلتها اللاتينية ابان عصر التجديد الاوروبي ، عرف العرب أن هنالك أمة تدعى اليونان وان فيها فلاسفة وان لها فلسفة وآداب . فهل يمكن أن يكون إغفال الكلام في هذا المصدر في كتاب إلا طريقاً للعثار يتعثر فيه طلبة العلم والأدب ويظلمون يعتقدون كما اعتقد أهل المدرسة القديمة في الشرق العربي أن العرب نقلوا عن اليونان مباشرة ؟ وهل يكفي في كتاب ككتاب عصر المأمون أن يشير المؤلف اشارات وجيزة إلى أن هذا الكتاب نقل عن السريانية وذلك عن اليونانية ليدعى بأنه أحاط ببحث هذا العصر التاريخي احاطة انتجع فيها مناجع التحليل لامناجع التقرير ؟ على أن المؤلف في اشاراته هذه قد اعترف بأنه إنما نقل عن الفهرست وغيره من الكتب فكأنه يرجوه الى هذه الكتب قد أشار الى أنه خالي الذهن من حركة النقل الى السريانية التي سبقت حركة النقل الى العربية . ولو أنه قرأ قبل أن يتورط في بحثه هذا شيئاً مما كتبه الاستاذ اوزبورن في كيفية تكوين الخلافة والفكرة فيها ، أو بعض ما كتب العلامة درابر في نشوء الفكر الاوروبي وعلاقة ذلك بمدنية العرب في الاندلس أو كتابه تاريخ النضال بين الدين والعلم وكيف كان العرب يمثلون نزعة التسامح الفكري التي ورثوها عن المدارس التي نقلوا عنها ، أو وقف على قليل مما دمج الاستاذ أوليري في حقيقة الفكر العربي وموضعه في تاريخ الدنيا الحديثة ، لو فر علينا عناء ما نكتب الآن ولو فر على المبتدئين سوء ما سوف يتخبطون فيه من عماية اذا اعتمدوا في درس العصر العباسي على تاريخه في عصر المأمون .

ولو أردنا أن نقدر الكتاب نقداً عاماً لا تسع بنا مجال القول ولضائق صفحات العصور عن أن تسع بعض ما نجد من هنات في الكتاب . ولكن حسبنا الآن أن نحصر النقد في نقط أربع نشبع القول فيها ، وقد تكفي القراء في تكوين رأي صحيح في قيمة ما بلغ المؤلف من تحقيق في كتابه هذا .

أولاً — أصل النقل عند العرب

لم يعرفنا المؤلف كيف اتفق للعرب أن ينقلوا علوم اليونان إلى لغتهم ، ولم يحاول أن يذكر مرة واحدة علاقة العالم العربي بالعالم السرياني قبل الاسلام .

ولكن لهذه العلاقة تاريخاً لايجدر بنا أن نغفل أمره في هذا النقد .
كان الخلاف على طبيعة المسيح مبدأ مناقشات تناولتها الشيع الكنيسية في
القرون الاولى . وكان لاختلاف المذاهب في تلك المسألة أكبر الاثر في النظر
في المعقولات وفي التأمل الفلسفى .

لقد اشتهرت انطاكية بأنها من أولى المدن المسيحية التى قام زعماء الدين فيها
بأول حركة من تلك الحركات الفكرية التى كانت ذات أثر كبير فى شيوع الفلسفة
وفروع الفلسفة اليونانية خاصة . ذلك بعد مناظرات دينية طويلة لافائدة من
ذكرها . وقام بالحركة فى انطاكية معلمان ، أحدهما ديودوروس والآخر تيودوروس
المصيصى . وكان كلاهما شديد الاعتقاد فى كمال الناسوتية فى المسيح عيسى .

وكان أكبر مؤيد لهذا المذهب راهب من رهبان انطاكية يدعى نسطوريوس
سيم أسقفاً للقسطنطينية سنة ٤٢٨ م . ولقد تبع تأييد نسطوريوس لهذه الفكرة
مناقشات حارة ، حتى انتهى الامر بعقد مجلس دينى فى افسوس سنة ٤٣١ م فانتصر
حزب الاسكندرية ، وهو الحزب القائل بما يضاد المذهب النسطورى ، واعتبر
نسطوريوس وأتباعه هرطقة . لذلك طوردوا حتى نزلوا مصر واتخذوها مقراً
لبث تعاليمهم .

قبيل ذلك العهد أغلقت مدرسة نصيبين أو بالاحرى انتقلت الى الرها .
وفى سنة ٣٦٣ م سلمت مدينة نصيبين الى الفرس تنفيذاً للمعاهدة التى عقت
الحرب التى أشعل نارها الامبراطور يوليانوس . وكان أعضاء مدرستها متناثرين
فى الممالك المسيحية إذ ذاك ، فعادوا إلى التجمع فى الرها وفتحوا مدرسة سنة ٣٧٣ م
وبذلك أصبحت المدينة ولو أنها فى أرض تابعة للامبراطورية البيزنطية ،
مركزاً للكنيسة التى ينطق زعماءها باللسان السريانى . ولقد أصبحت مدرسة
الرها بعد ذلك موئلاً لأفراد من زعماء النساطرة الذين لم يقبلوا حكم مجلس افسوس .
غير أن الامبراطور زينون أغلق تلك المدرسة سنة ٤٣٩ م بحجة أن صبغتها
نسطورية متطرفة . فلم يجد أهلها من ملاذ سوى الهجرة الى البلاد الفارسية
فهاجروا وعلى رأسهم «بارسوما» سنة ٤٥٧ م ونجح بارسوما فى أن يقنع فيروز ملك
الفرس بأن النساطرة يوالون أبناء فارس ويخضعون لقوانينهم ، وبذلك أسس
النساطرة مدرسة أخرى فى نصيبين أضحت بورة تشع منها التعاليم النسطورية التى

كونت وجهاً من المسيحية اصطبع بالصبغة الشرقية البحتة .

من ثم انتشر النساطرة في جوف آسيا وبلاد العرب ينشرون تعاليم المسيحية ولم يكونوا عامين على نشر المسيحية فقط ، بل أرادوا أن ينشروا معها تعاليمهم الخاصة في طبيعة المسيح . فأخذوا يستعينون على بث أفكارهم بأقوال ومذاهب منتزعة من الفلسفة اليونانية فأصبح كل مبشر نسطورى بحكم الضرورة معلماً في اليونانية ، كما أنه مبشر بالدين المسيحى . ولقد ترجم النساطرة كتب زعمائهم وعلى الاخص كتب تيودوروس المصيصى إلى السريانية ليستعينوا بها على بث أفكارهم ، ولكنهم لم يقتصروا على ذلك ، بل ترجموا كثيراً من كتب ارسطوطاليس والذين علقوا عليها ، لأنهم وجدوا فيها أكبر نصير يشد عضدهم في فهم المسائل اللاهوتية العويصة التي كانوا ينشرون بها بين أئمة لم تشم من ريح المدنية الا قدراً يجعل نشر مثل تلك التعاليم متعذراً ، ما لم يستعن عليها بمبادئ من الفاسفة ، ومباحث في التأمل . ومن أغرب ما تقع عليه في التاريخ أن ارسطوطاليس كان أكبر عضد للمدارس المسيحية القديمة ، كما كان عماد أصحاب المذاهب في القرون الوسطى ، وكذلك كانت فلسفته مبدأ الشقاق في الشيع الاسلامية . فكان القدر قد شاء أن ينتج أكبر عقل عرفه التاريخ فلسفة عضدت رجعية العقول خلال ألفين ونيّف من الأتوام الطوال .

تلك كانت النواة التي أشعت بالفلسفة اليونانية ، وعلى الاخص بفاسفة ارسطوطاليس والافلاطونية الجديدة في جو آسيا خارج حدود الامبراطورية البيزنطية . والواقع أن جماعة من النساطرة كانوا أول من نقل الفاسفة من السريانية الى العربية ، وبذلك انتشرت في العالم العربى كله ، مشبعة بروح الكنيسة النسطورية والشيع المسيحية التي هبطت المشرق هرباً من استبداد بيزنطية بهم في سنة ٤٤٨ م عقد بمدينة خلقيدونية مجعاً دينياً آخر كانت نتيجته أن أخرجت فئة أخرى من الكنيسة الرئيسية هم فئة المعتقدين بالطبيعة الواحدة في المسيح . وفي القرن السادس قام يعقوب السروجى وأنشأ شيعة اليعاقبة ، وهو من أنصار الطبيعة الواحدة . واضطهدت الامبراطورية البيزنطية الشيعة اليعقوبية . ولكن أنصارها لم يخرجوا عن حدود الامبراطورية فظلوا داخلها ، ولكنهم أرسلوا طائفة منهم خارجها لتبث تعاليمهم . على أن هؤلاء قد اتبعوا نفس

الطريقة التي اتبعها النساطرة في ترك لغة نظرائهم في الدين ، وعمدوا الى استعمال اللغة القبطية واللغة السريانية . والحق ان عصر اللغة السريانية الذهبي لا يبدأ الا برجوع اليعاقبة عن استعمال اللغة اللاتينية الى اللغة السريانية .

فاذا اعتبرنا النتائج التي حدثت من خروج النساطرة واليعاقبة على الكنيسة الرئيسية ، استطعنا أن نفهم لماذا ترجمت أعمال الفلاسفة اليونانيين الى السريانية .

بينما نجد أن الحركة النسطورية كانت السبب الاول في أن اللغة السريانية قد أصبحت بالتدريج الوسط الذي تركزت فيه ثمار الثقيف اليوناني وانتشرت في آسيا خارج حدود الامبراطورية البيزنطية خلال بضعة القرون التي تقدمت انتشار الاسلام ولا خفاء في أن تعاليم ارسطوطاليس وأتباعه المشائين ، وكذلك تعاليم فلاسفة المدرسة الافلاطونية الجديدة كانت ذات أثر بارز في التأثير على كل من تعتمد الخوض في معارك الفئات الدينية في ذلك الزمان . وكذلك منطق ارسطوطاليس فانه كان كبير الفائدة وعليه بنيت طريقة الجدل التي اتخذها زعماء الدين ذريعة لاثبات مزاعمهم . فاذا اعتبرت بعد ذلك ذبوع ترجمات وتعليقات في اللغة السريانية أخرجها أمثال بولص الاجانيطي وفرغوريوس الصوري ويوحنا فيلوبونس وسرجيس الراس عيني ، واذا اعتبرت ما أنتجت مدرسة نيسابور التي وفد منها كثير من معلمي العصر المأموني وأطبائه ومترجميه ، واذا اعتبرت فوق ذلك علاقة المدارس السريانية ببلاد العرب قبل انتشار الاسلام ، علمت أن الاثر في العلم العربي والفلسفة العربية كما تدعى تجاوزاً ، كان سريانيا مسيحياً بالذات ، يونانيا بالواسطة . هذا ما أغفله واضع كتاب عصر المأمون الذي يعتبر أكثر العصور العربية تأثراً بهذه المقدمات . على أن تاريخ القرون التي تقدمت انتشار الاسلام تدل على ذبوع قسط عظيم من التأثير اليوناني في كثير من فروع الفن والفلسفة والهندسة والبناء ، وفي زخارف الحياة ذاتها . ومن قبل ذلك ، منذ عصر الاسكندر المقدوني ، كان غربي آسيا لا يتنفس الا في جو منعم بآثار الفكر الاغريقي . وهذه الوراثة الطويلة يغفلها صاحب كتاب عصر المأمون ، ثم يقول كتبت في تاريخ المدينه العربيه وفي أزهر عصر من عصورها . أليس في هذا منتهى المعجب ؟

ثانياً — الارقام الهندية

في سنة ١٥٦ هـ وفد هندي الى بغداد يحمل مقالة في الرياضيات وأخرى في علم الفلك . أما الثانية فكانت مقالة « سدهانتا » التي عرفها العرب من بعد باسم كتاب « السندهند » وترجمها ابراهيم الفزاري فكان نقلها بدءاً عصر جديد في دراسة هذا العلم عند العرب . أما المقالة الرياضية التي وفد بها ذلك الهندي فكان لها أثر كبير في درس الرياضيات ولو لم يكن لها من أثر إلا إدخال الارقام الهندية واتخاذها أساساً للعدد في العربية لكفى بذلك أثراً خالداً . فقد تطور على أثرها علم العدد عند العرب ، وسار بتلك الخطى الحثيثة التي كان يعوقها دائماً استعمال العرب لغير الهندية من الارقام المعقدة المبهوشة . ونو لم يكن من أثره إلا معرفة العرب لعلم الجبر وما استتبع ذلك من تضاعفهم في علوم الفلك والكيمياء لكفى بذلك مبرراً لأن يفرغ مؤلف عصر المأمون شيئاً من صبره على درس هذه الآثار . ولكن كتاب عصر المأمون لم يتسع لأمثال هذه الابحاث التي لا يعرف عصر المأمون الا بها والحقيقة أن المؤلف ذكر ضمن جدول كتاب « القطوع المخروطية » الذي وضعه أبولونيوس . ولكن هل ذكر أن هذا الكتاب وجدت نسخة من الكتب السبعة الاولى منه ، لأنه مقسم الى ثمانية كتب ، سنة ١٦٥٨ . وهل ذكر أن مسيو بورلي كان أول من عثر عايتها في مكتبة فلورنسا ؟ وهل ذكر أنه في ذلك الحين عاد الاستاذ غولبوس أستاذ اللغات الشرقية في مدرسه ليدن من الشرق بنسخة عربية من الكتب السبعة وقال ان الثامن لم يترجم ؟ وهل ذكر أن الاستاذ الدكتور صروف قد قال في المقتطف ص ٤٠٥ مجلد ٣٨ انه رأى نسخة من كتاب القطوع المخروطية حروفها بلا نقط وأرقامها حروف في مكتبة المدرسة الكمية ببيروت سنة ١٨٨١ وانه يرجح أنها نسخة الطوسي ؟ هل ذكر شيئاً من هذا ؟ لم يذكر شيئاً . ومع هذا فانه يدعى بأنه كتب في عصر المأمون .

ثالثاً — كتاب بن وحشية .

مما يدل على اهتمام المؤلف بكتاب بن وحشية هذا أنه أفرد له خمسة عشر سطراً في صيفتي ٣٩٢ و ٣٩٣ وذكر « أن كتاب الفلاحة النبطية فريد في بابه وقد نقله إلى العربية احمد بن علي بن المختار النبطي المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١ هـ وظل معتمد أهل الزراعة الى أمد غير بعيد ، وانه قد نقل الى اللغات الافرنجية ،

ولولا نقله الى العربية لضاع وخسر العالم « الخ ولا أريد أن أعرض لنقده ، بل ألتجأ الى أستاذ من أستاذتي وأساتذته هو الاستاذ نلليانو ليقف بيننا حكما وليقضى في مقدار تحقيق الاستاذ مؤلف كتاب عصر المأمون على الطريقة التحليلية

قال الاستاذ نلليانو في كتابه القيم تاريخ الفلك عند العرب ما يلي بنصه :
ص ٢٠٣ إلى ٢٠٩ « تحفظ في أوروبا نسختان من كتاب يخال المطلع عليه أول بدء أنه ترجمة تأليف تنكلوس إلى العربية . واسم الكتاب في نسخة مدينة ليدن « كتاب تنكلوشا البابلي القوقاني ، في صور درج الفلك وما تدل عليه من أحوال لمولودين بها . نقله من اللغة النبطية إلى العربية أبو بكر بن احمد ابن وحشية وأمله على ابن ابى طالب احمد بن الحسين بن علي بن احمد بن محمد بن عبد الملك الزيات » وفي نسخة مدينة بطرسبورغ « كتاب سكاوشا (كذا) القوقاي من أهل بابل في صور درج البروج وبعض دلائلها على ما أخذ عن القدماء » . وغاية الكتاب وصف الصور العجيبة التي يتوهم المؤلف أن تطلع مع كل درجة من درج البروج الثلاثمائة والستين ثم ذكر صفات وأخلاق من كان طالع مولده الدرجة المذكورة . وقال مثلاً ان الدرجة الثلاثين في الميزان — « يطلع فيها رجل في صورته العظمى التي لا يطيق أحد أن ينظر اليه ولا أن يدنو منه على مسيرة الف سنة من شدة البرد والكزاز وهو جالس على رفرف من ديباج وقد جعل أحد رجليه على نفذ الآخر ، وعلى رأسه تاج من الزمرد الأخضر وفي يده المينى طوق من حجارة الشيخ فيه مرآة كبيرة محلاة وهي تلمع وتبرق ولحيته كبيرة بيضاء مثل الثلج وفي رجله خف ديباح أسود جد السواد وهو مشتمل بكساء خبز أخضر أسود شديد السواد وهو ساقط مطرق » وقال ان الدرجة السادسة عشرة من برج العقرب « يطلع فيها لوح ذهب مدفون حواليه فصوص زمرد أخضر ورجل شيخ جالس في حجره مصحف يقرأ فيه أخبار قياما الملك وأقاصيصه » وعلى قوله في الدرجة التاسعة من برج القوس « يطلع فيها عقويا الحكيم في صورته اذ كان شاباً جميلاً وقد أخذ بيده جارية حسناء وهو يتحدثها بحديث صغار لا يفهمه أحد ويضحك اليها وعن يمينها الصن المقير الذي حمل فيه رأس ريمحانا الملك إلى عمه فلما رآه مات فبقى الصن بموضعه سنة لا يمسه أحد ولا ينظر اليه والباب دونه مغلق إلى أن جاءهم رسول ملك الفرس وحرق الصن والرأس فيه »

« وجميع الكتاب خرافات مثل هذه يحكيها لدرجة درجة من فلك البروج .
 فاذا قابلناها على ما وصل اليها من تأليف توكرس أو تنكلوس الحقيقي وجدنا بين
 الكتابين فرقا عظيما بل بونا شاسعا . ويركن تنكلوشا القوفاني (أو بالحرى ابن
 وحشية أو ابوطالب الزيات حسبما سأبينه) إلى حكماء أهل بابل الاوائل ودعاهم
 باسماء غريبة مختلفة اختلاقا واضحا مثل أرميسا وبرهانيا الخسرواني وغيرها .
 فلا ريب في أن هذا الكتاب هو المذكور في الفلاحة النبطية لأبي بكر احمد ابن
 علي بن المختار المعروف بابن وحشية النبطي »

وبعد أن وصف الاستاذ نلليينو كتاب الفلاحة النبطية ذا كرا مثبتا أنه
 كتاب يتعاق بالعلوم السحرية أكثر منه بالطبيعياب والنبات ، وبعد أن ذكر
 مقاله بن خلدون فيه وأنه كتاب سحر وطلسمات قال :

« ومن أعجب العجائب أن كتاب الفلاحة النبطية على المحتمل ليس تأليف
 ابن وحشية كما قيل في عنوان الكتاب وصدره ، بل انما هو من مختلفات ابى طالب
 الزيات ، الذى نسبته إلى ابن وحشية أى إلى رجل قد مات وقت نشر التصنيف
 تخلصا من ذم اخوانه المسلمين وتبرئة لنفسه من تهمة النفاق والافتراء . وأنتم
 تدرون ما أكثر مثل ذلك الفعل عند أصحاب الاحكاميات والسحريات والكيمياء
 وكم من تأليف عزي مثلا إلى هرمس وجاماست وغيرها من الحكماء الوهميين ،
 وكم نسب إلى ابى معشر ومسامة المجريطى من كتاب الف بعد موتها بقرون .
 وانى مراتب حتى في وجود ابن وحشية الذى عزا اليه صاحب كتاب الفهرست
 ص ٣١١ إلى ٣١٢ عدة كتب في علوم السحر ، وص ٣٥٨ كتابا في الكيمياء
 من دون ان يفيدنا شيئا من أحوال حياته ، وأسماؤه ابو بكر احمد بن علي ابن
 المختار بن عبد الكريم بن جرثيا بن بدنيا بن بريطانيا بن غلاطيا (كذا) الكسداني
 فترون أن أسماء أجداده أسماء وهمية لا أصل لها في اللغات الآرامية (ومنها
 النبطية) أو في لغات أخرى ، بل أن بريطانيا وغلطيا أسماء ولايتين مشهورتين
 من ولايات المملكة الرومانية ، ذكرنا أيضا في كتابين لبطليموس منقولتين إلى
 العربية . فيتضح أنهما جعلتا أسماء أشخاص تزويرا ، وزيادة على ما قلته تستفيد
 من كتاب الفهرست ص ٣١٢ أيضا أن جميع تأليفات ابن وحشية في
 السحر انما عرفت برواية أبى طالب الزيات . فذلك يزيدنى ريبا في حقيقة
 وجود ابن وحشية »

وبعد. فانا نسائل مؤلف كتاب عصر المأمون اين هو كتاب الفلاحة النبطية الذى ظل معتمد أهل الزراعة إلى زمان قريب ؟ وهل هو فى الزراعة والاستنبات حقيقة أم انه فى السجريات والطاسمات ومعرفة خطوط الناس من دوائر البروج ؟ بل نسائله أين بن وحشية نفسه ؟ وبمثل ما حقق الاستاذ الدكتور مؤلف كتاب عصر المأمون فليحقق المؤرخون .

رابعاً كتاب إيثولوجيا

نسب المؤلف كتاب إيثولوجيا إلى أرسطوطاليس . وكتاب إيثولوجيا هذا مطبوع فى أوروبا ومنقول عن نسخ صحيحة وفيها أن الذى نقله عن السريانية هو ابن ناعمه ويعرف فى التراجم الافرنجية باسم « نباح » . والحقيقة أن البسيكولوجيا لأرسطوطاليس لم تفسر عند العرب الا بالاستعانة بما كتب فيها الاسكندر الافرورىسى من التعليقات . وبذلك اصطفت بصيغة من الألوهية وما بعد الطبيعة ، اكتمتها من بعد المدرسة الأفلاطونية الجديدة بتعاليمها المستمدة من كتاب إيثولوجيا الذى نحن بصدده وهو من وضع الشيخ افلوطين الاسكندرى ، وهو كتاب فى القول بالألوهية نسب خطأ إلى أرسطوطاليس وكان سبباً فى أن يعنت المعلم الثانى ابونصر الفارابى نفسه فى سبيل التوفيق بين افلاطون وأرسطوطاليس . ولم تدع الأفكار الخاصة بالقول بالألوهية فى الأفلاطونية الجديدة بين العرب الا بعد أن ترجم كتاب إيثولوجيا المنسوب إلى أرسطوطاليس إلى العربية سنة ٢٢٦ هـ — ٨٤٠ م والحقيقة التى ثبتت من البحوث الحديثة أن كتاب إيثولوجيا ليس سوى تلخيص لثلاثة الفصول الأخيرة من كتاب يسمى اينياس أى التاسوعات وضعه الفيلسوف افلوطين الاسكندرى فنقلها بن ناعمه إلى السريانية ونشرها بين الناس فى صورة كتاب مستقل منسوب الى أرسطوطاليس . نقف بالنقد عند هذا الحد راجين أن تتاح لنا فرصة أخرى نتم فيها نقد الكتاب .

أما وانى اعتقد انى اتممت بهذا النقد واجباً فانى اتقدم إلى صديقى الدكتور احمد فريد رفاعى مهنيًا بما أولته الجامعة وأساتذتها من ثقة راجياً أن يتمتع العربية بنتاج أبحاثه القصية العميقة فى عصر المأمون وفى غيره من العصور
اسماعيل مظهر

برامج التعليم

أمانة في عنق المسؤولين عنها

لبرامج الدراسة الأثر العميق في تكوين النشء — رجال الغد — فبضاعتهم العالمية مضافاً إلى ذلك تكوينهم الخلقى ، هي تكأنتهم في المستقبل كما أنها العدة التي تعتد بها الأمة في معترك الحياة . ولقد عنى مفكرو الأمم والمسؤولون عن تربية النشء فيها بوضع برامج تسد حاجات الشعب النفسية والذهنية ، وتقوى الملكات الغريزية فيه وترفع مستوى ثقافته الخاصة به ولم يقم هذا الاعتبار يوماً ما مانعاً يحول دون تطور هذه البرامج تبعاً لحاجات العصر . فمثلاً في انكلترا عنى الانكاز في جامعاتهم الناشئة الوليدة في الأقاليم ، كجامعات برمنجهام وليدز وشفيلد مثلاً بتوسيع نطاق الدراسات الآلية العملية بجانب الدراسات الأدبية البحتة ثم الفلسفية والإستقصائية ، مع الأخذ من الأولى بقسط أوفر نسبياً مما في الجامعات القديمة .

ولست مسألة وضع البرامج بالمسألة التعليمية الصرفة التي يوكل بها إلى المعلمين والاختصاصيين الذين تحول نزعتهم إلى التفاصيل وحب التدقيق في المسائل وجنوحهم إلى الاستقصاء والتعمق في الأوليات ، دون الجولة في آفاق العلم المتشعبة التي تحتاج إلى النظرة الشاملة الملمة بشتى المسائل ، المحيطة بمناحي الفكر . فتوجيه البرامج توجيهاً خاصاً من اختصاص « سياسة التعليم » وهذه هي المرجع الأعلى الذي يحدد هذا التوجيه الخاص . وليست مهمة تفاصيل كمية ما يدرس أو أبواب ما يدرس في الكيمياء أو الهندسة أو الفلسفة إلى غير ذلك من الأشياء التي تعنى بها سياسة التعليم ، إنما تعنى سياسة التعليم بالتناسق والارتباط بين فروع البرامج على مقتضى احتياجات الأمة ، لاسيما في بلد ناهض كهصر . ولذا كان اقتباس أنظمة التعليم من الخارج بنصها وحذافيرها سخف لا يعدله سخف . لهذا نرى أن الضرورة تحتم علينا وضع سياسة للتعليم قبل أن نضع البرامج . والواقع أن المسئول عن تحديد هذه السياسة ورسمها هو وزير المعارف لعدم توفر هيئات

من الاختصاصيين يمكن أن يعتمد عليها في وضع هذه السياسة أو تشير على الوزير المسؤول بما يجب اتباعه أو تملأه بالمعلومات . إذن فهو وحده المسؤول عن فحصها وتكييفها ، وفوق كل شيء مسؤول عن توجيهها وفق برنامج قومي لا بأس من الاستئناس فيه برأي زملائه الوزراء أو المستنيرين من أعضاء البرلمان أو الهيئات العاملة في تكوينه ووضع قواعده ورسم الخطط التي يتجه فيها .

كلنا يشكو من أن البرامج القديمة سخيصة معتلة ناقصة لا تشفي غليلاً . بل لا نفالي إذا قلنا بأن لا فائدة منها اللهم إلا تكديس المعلومات في عقل التلميذ . فان سياسة التعليم القديمة لم تتسام (أو لم ترد أن تتسام) إلى أبعد من الحد الذي يعتبر فيه الطالب مخزناً تكس فيه البضاعة العلمية دون النظر في تناسقها وصلاحيتها . فان كان كيانه سليماً أعوزته الغذاء الدسم الذي يشبعه ويسد حاجات نفسه وذهنه ، وان كان معتلاً أصابته التخمّة ، فلا يقدر على هضم شيء منها أو تمثيله . فكانت البرامج القديمة فتاتاً وقشوراً لا جوهر فيها ولا لباب . خدمت التاريخ وهو الآن بيت القصيد ، اذ في برامجها تجتمع المساوئ ، وتنطق صارخة ولا مراة في أن دراسة التاريخ الاثر البالغ في تكوين نفسية الشعوب والتاريخ سلسلة متصلة الحلقات وصورة كاملة لمصور الانسانية وجهادها في تكوين مصائرنا نحو مثابها العليا ، ولذا كان له الاثر القوي البعيد بل وأن دراسته تختلف عن دراسة الفلسفيات أو المنطق أو الكيمياءيات . فجماع هذه دراسات ذاتية موضوعية لا تؤثر كثيراً في النفس القومية ولا تكسبها لوناً خاصاً أو طابعاً مميزاً لها . وكذلك الحال في كل الدراسات الكونية العامة فانها انما تترك في الفرد أثراً خاصاً لا يسرى في المجموع مهما كانت قوته في الفرد . فن الواجب اذن أن توجه دراسة التاريخ توجيهاً خاصة ياتم وسياسة التعليم المرسومة لأبناء الأمة . فطالب اليوم هو رجل المستقبل ، ويجب أن تتخطى نظرنا فيه تلك النظرة الفردية الضيقة إلى النظرة القومية ، باعتباره فرداً يعمل على تشييد كيان الأمة ، ويتأثر بطابع قومه ويؤثر فيهم . ومن هذا التأثير والتأثر المتبادل تتولد نفسية الشعب وعبقريته الممتازة . فلزام علينا أن نعني باختيار برامج تدريس التاريخ ومناهج تدريسه وطرائقها اختياراً خاصاً لان لتأثيرها القومي والتثقيفي اعظم أثر في تكوين الأمة . كانت المواضع

التي تدرس في المدارس الثانوية أشبه شيء برقعة الشطرنج أو قطع الفسيفساء المختلفة الألوان . ففي السنة الدراسية الواحدة كان ينتقل الطالب كالمصفور الحائر من تاريخ مصر القديم إلى اليونان ثم إلى الرومان ثم إلى شيء من تاريخ العرب يمرون عليه مر الكرام على اللغو ، دون تفهم أو استيعاب . إنما هي لمحات عجيلى لا تترك في النفس من أثر فضلاً عن التشويش في الذهن . والانكى متى تدرج إلى السنة الثالثة أو الرابعة فانك تجده مكباً على درس حوادث فترات متقطعة من التاريخ ، انتزعت نزعا . فتراه ينتقل من عصر ملك كلويس الرابع عشر إلى عصر الإصلاح الدينى إلى حرب السبع سنين إلى الإصلاح الدستورى فى انكلترا . ولا ندرى ما الذى منع الدين وضعوا هذا البرنامج عن أن يذهبوا به إلى حرب داحس والغبراء وغير ذلك .

ان أبسط المبتدئين فى تدريس التاريخ يدرك ولا شك أن فائدته تنحصر فى اتساقه وتسلسله واكتمال روح الاستمرار فيه . ذلك لان التاريخ صور كاملة وفائدته المرجوة ، لا للطلبة أو المدرسين وحدهم ، بل للجمهور الامة ، ليست فى الاكباب على درس غوامضه ومفصلاتة ، بل فى الوقوف على صورته والنظر فيها نظرة كاملة شاملة لنواحيها المختلفة . ومثلك فى هذا كمثلك اذا وقفت أمام صورة أبدعها أحد كبار الفنانين . فليس مبعث لذتك فيها ومثير شجونك منها أن تتفقد الاركان والنواحي وتستعرض طيات ثياب شخص ممن يكونون مجموعها ، أولون حذائه ، أو خاصية بعض الاثمار فى منظر طبيعى — كلا . فان هذا متروك للاخصائيين والخبراء الذين يعنون بالتنقيب والتشريح دون التكوين الجميل . إنما يهمك ، لزيادة بضاعتك الذهنية ورياضة نفسك وتكوين حاسة الجمال والذوق السليم فيك ، أن تنظر فيها نظرة شاملة تأخذ بمجامع قلبك وتشبع عيناك وترضى نزعة الجمال فى نفسك ، فتحيط باطراف الصورة وتستحدث فى مخيلتك أثراً ما تستخلصه منها . وكذلك التاريخ . فلافائدة فيه اذا أصبح نتفاً مقطعة مجزأة لا يفايح الطالب إلا فى حفظ تفاصيلها من تواريخ ملوك أو معاهدات أو حروب حفظاً عن ظهر قلوب ، إنما ترجع الفائدة فى أن يعطى عصرأ كاملاً ليدرسه بلا اختيار وليكن ذلك فى تاريخ مصر أو انكلترا أو فرنسا أو كما تشاء . إنما الواجب والفائدة يقضيان بأن لا تعطيه من التاريخ نتفاً ومقتطعات لا تسمن ولا تغنى من .

جوع .. ولعمرك هل شعرت يوماً من الأيام بأن دراسة التاريخ قد تركت في نفس طالبه أثراً امتد إلى ما بعد نواله الشهادة ، أو انتقاله للمدارس العالية ؟ وكيف ترك دراسة التاريخ على هذا النمط أثراً وهي عبارة عن حفظ تواريخ عن ظهر قلب ورواية وقائع لا اتصال بينها ، وتنقل من عصر إلى عصر ، ومن شعب إلى شعب ، ومن مدينة إلى أخرى ؟ كل هذا يحدث بمجزة كبرى في مدارس مصر ، لافي جيل أو جزء من جيل ، بل في عام واحد .

لأنقص بهذا أنه لا يجب على طالب القسم الثانوي أن يلم بالتاريخ العام إلماماً عاماً — كلا ! فليست مزية التعليم الثانوي أن يتخصص فيه الطالب لدراسة من الدراسات . ولذا كان لزام أن يلم تدرجاً من الأسهل المألوف ، إلى العامض المستعصى ، بشيء من التاريخ القديم والحديث في أوروبا والمدن القديمة . حتى إذا قصر تعليمه على الدراسة الثانوية ، ولم يكن في مكنته أن يتعمق بمتابعة الدراسة في الأقسام العليا واندماج في الأعمال والمهن ليكسب عيشه ، كان من الخبرة بالتاريخ العام بحيث لا تنقص به عدته الذهنية ليكون عضواً نافعاً في مجتمع بلاده ، يحسن الحكم على الأشخاص والمسائل ويستعرضها من نواحيها التاريخية . إنما العلة عندنا هي إفساد ذهن الطالب ونفسه بارهاقه واخضاعه لدراسة هذه الفترات المتقطعة من التاريخ ، وهذه النتف التي لا تتسق مع بعضها لتكون وحدة كاملة . إذ بذلك لا يمكن أن يكون الطالب فكرة صحيحة في تاريخ عصر كامل أو تاريخ أمة من الأمم .

التوجيه القومي لدراسة التاريخ

إن المكانة التي يجب أن تشغلها دراسة تاريخ مصر القديم والحديث ضئيل في البرنامج ، مهمل كل الإهمال . والنتيجة أن الطالب في السنة النهائية لا يدرك شيئاً من حضارة المصريين الأقدمين أو عظمهم فاذا حدثت استكشافات هامة تثير استطلاع العلماء وأهل المعرفة وأذاعت أخبارها صحف العالم في أركانه الأربعة رأيت القوم خارج مصر يعرفون عنها أكثر من الطلبة المصريين . وإذا عرفنا أن دراسة التاريخ غير معني به في كل المدارس العليا (عدا المعلمين) علمنا أنه متى تخرج الطالب وبرز إلى معترك الحياة شعر بأن عدته ناقصة وسلاحه مفلول ، فلا يستشعر

بعظمة الماضي ولا يستوحيه في حل مشكلات الحاضر لينير له الطريق ، بل يظل أفقه معتما ضيقاً . وألن نحن نجهل ماضى بلادنا أن تثير فيه الحوادث نحوه الوطنية وعزة القومية .

ليست الوطنية شغقة يتحرك بها اللسان ، أو كلمات ترسل ارسالا . إنما الوطنية شعور عميق وادراك « لما هو الوطن » ؟ تاريخه وشجونه ، حروبه ووصراعه ، كفاحه وجهاده ، تاريخ كبار رجاله وأعمالهم . نرى الأمم تستوحى الماضي لتستشعر به الحاضر ، وتحرك في الجماعات عوامل الاحساس بالعظمة والعزة وبمجموع هذه الحالات تتدرع لتواجه المستقبل . ولكن كيف تستقيم لنا سياسة ونحن لانفقه ماضينا حتى القريب منه ؟ أثارت اكتشافات توت عنخ آمون اعجاب العالم وهزت النفوس في نواحي العالم بما أضافته إلى ثروة الانسان من علم وجمال وكال . ولكن هل كانت درساً لنا ؟ هل كانت مذكراً لنا بعظمة الاجداد ؟ هل أثر فينا شعور بأن أجدادنا كانوا أعظم منا ؟ وهل حفزنا ذلك إلى العمل الجليل ؟ وهل تعدى ذلك قولنا كان أجدادنا !! مضافاً لها بعض كلمات من الفخار الأجوف .

ان برامج التعليم التي لاتعنى بالفكرة القومية هي المسؤولة عن ذلك . نعم اننا لا ننكر أن لدرس المدنيات القديمة خطرهما . وعلى الاخص المدنيات ذوات الاثر العالي كمدينة اليونان ومدينة الرومان ، لا مجرد تاريخهم وحروبهم وملوكهم . أو المدنيات ذوات الاثر في تاريخ مصر كمدينة الكلدان والاشوريين والفينيقيين . ومدنيات بحر ايجه ومدينة العرب في مكة والمدينة وبغداد ودمشق وقرطبة . ولكن فوق ذلك يجب أن يخصص المكان الاول لتاريخ مصر قديمه وحديثه ، وافياً شاملاً لحضارة مصر في كل أدوارها التاريخية

ثم لا يغيب عن البال أن دراسة مصر كوريثة لحضارة العرب لغة وعادات ، مهمة كل اهل . فتش في البرنامج الثانوى عن دراسة تاريخ العرب ومدينة العرب في بلاد العرب والعراق والشام والاندلس فانك لاتجد سوى القشور ، كأن المقصود من درس التاريخ هو أن نبتعد عن الماضي القديم الذى لا معلم لنا سواه والذى كان له أقوى أثر تكوينى في كياننا الفكرى والاجتماعى . ثم فتش عن دراسة البلاد الشرقية ، جاراتنا جغرافياً أو فكرياً ، بصفتها شريكات لنا في هذا

التراث المجيد ، تراث الحضارة الاسلامية ، فهل تجد أن الطالب يدرس من هذا سوى النزول اليسير من حضارة الاندلس . هل يدرس شيئاً من العمارة الاسلامية ؟ هل يعرف شيئاً من تاريخ أحد المساجد الاثرية العظيمة التي يعرف عنها السائحون وجائبو الآفاق متى هبطوا مصر وأقاموا بها عدد الاصابع من الايام ، أكثر مما يعرف طلبة العلم في مصر ؟ واذا عرف شيئاً هل يهتز شعوره لأثر جليل من آثار الاسلام العديدة المنبثة في الاحياء الشعبية والمنعطفات ؟ هذا من عقم البرنامج وعقم المدرس وعقم نظام التعليم ، وعدم وجود سياسة للتعليم توجهه توجيهاً خاصاً . وهذا كله من اختصاص وزير المعارف وحده ولا يملك توجيهه سواه ، مع التسليم بأن تنفيذه موكول لمستشاريه الفنيين

أوحى إلى بهذه الكلمات ما علمت من أن هناك في عصر النهضة والاصلاح والتجديد كما يقولون ، لجنة يجلس فيها بعض اخواننا المثقفين الذين وردوا من اهل العلم في أوروبا والذين نسمع انهم يسمعون لتوجيه دراسة التاريخ توجيهاً أوروبياً محضاً ، متذرعين إلى ذلك باهمال تاريخ مصر والشرق وحضارة الاسلام وتوسيع دائرة تاريخ أوروبا دراسة شاملة تتناول التفاصيل ودقيق الموضوعات (كتاريخ الرهينة) بينما هم يضيّقون على تاريخ الاسلام والشرق ويأبون إلا أن يكيلوا له حصته بالدائق والسحتوت . انا نعيذهم أن يرتكبوا هذه الجريمة ضد النشء الحديث والبلاد ولا نسألهم الا سؤالاً واحداً هل (وهم أساتذة التاريخ) يمكنهم أن يدعوا ادراك التاريخ الاوربي ادراكاً صحيحاً دون الالتجاء إلى ارتياد مشاهد حوادثه ومعالم أقطاره ، هضابه وديانه ، ومواقعه ومعاقله ، ودور العلم والفن ، واستيعاب نفسية الشعب العامة ، وقراءة آدابه وتصانيفه في الاجتماع والفلسفة ؟ لا ننكر أن الضرورة تقضي علينا بأن ندرس تاريخ أوروبا لنفهم عقلية القوم اذ التاريخ مفتاح لتفهم عقلية الشعوب . ونحن أحوج مانكون إلى تفهم عقلية شعوب أوروبا العظيمة خصوصاً الانكليز . الذين لو تفهمنا حقيقة تاريخهم وعقليتهم أصبح حالنا معهم خيراً مما عليه الآن . انما لا يجب أن تطارد هذه الدراسات الدراسات المصرية والشرقية وتبعدها عن مكانها التي هي به جذيرة وعن ميدانها الذي هو حق لها . ولنقل لهؤلاء ، كما كان يكرر حكيم اليونان « القصد القصد الاعتدال الاعتدال » أني التبعة الملقاة على وزير المعارف تقتصر

في انه يملك توجيه الدراسات توجيهاً سياسياً » بمقتضى ما يلائم حاجات البلد ومطالبها النفسية والذهنية »

فالواجب أن نحذو حذو الأمم التي تدرك ما لتاريخها القومى من الاثر في تكوين عقلية شعبية تدرك حقيقة الماضى ادراكاً مستمداً من حقائق التاريخ ووقائعه لنستعين بها على فهم الحاضر والحكم عليه بصورة لم تكن في متناول أحد من قبل . وليس من المستطاع أن يكون الا كباب على درس التاريخ الاوروبى وعلى الاخص تاريخ الرهينة ذا أثر ما في تكوين عقلية قومية يمكنها أن تدرك من الماضى ما تستطيع به الحكم على المستقبل ازاء مشكلة تجدد أو حادث يرمينا به الدهر .

أما المسؤولية فكبيرة . وأما حقوق مصر فبين أيدي أولئك الذين يتحكمون اليوم في برامج التعليم . ولعل المستقبل القريب لا يثبت لنا أن مصر سوف تحتكم في برامجها عقول اصطبغت بالصبغة الاوروبية ففسدت أحكامها وانتكت قتلها ، كما احتكت في برامج الجامعات في القرون الوسطى عقول أثرت فيها مذاهب اللاهوت ، فحجبت عن أنظار أبنائها ضياء العلم ورمت بها في اكناف الجهل ، وقدفت بها في ظلمات القرون الأولى .

بيداغوج



فهرست

ص	
۲۰۱	شارلوت کوردای
۲۱۷	مدی الجهل ونور التجديد
۲۱۸	تاريخ النضال بين الدين والعلم
۲۲۶	القوة المعنوية وآثارها في الحروب
۲۳۶	ذكرى ۱۴ سبتمبر
۲۴۲	الزولوجيا — أو مبادئ علم الحيوان
۲۵۴	عن ايلال دى موسيه
۲۵۵	احسان — أوبرا تمثيلية
۲۵۹	الانتحار كمؤثر اجتماعي
۲۶۸	ثرو شعر
۲۷۵	الخطرة النفسية والشعور بالحق
۲۸۲	عصر المأمون — نقد علمي تاريخي
۲۹۳	برامج التعليم
	اسماعيل مظهر
	حسن كامل الصيرفي
	عمر عنایت
	الملازم
	عبد السميع عرابي
	للدهشان
	ناقد
	توفيق حلبي
	حسين تقى اصفهانی
	اسماعيل مظهر
	بيداغوج